www.hafryat.com

الجزء 3

أحمد بان
باحث مصري

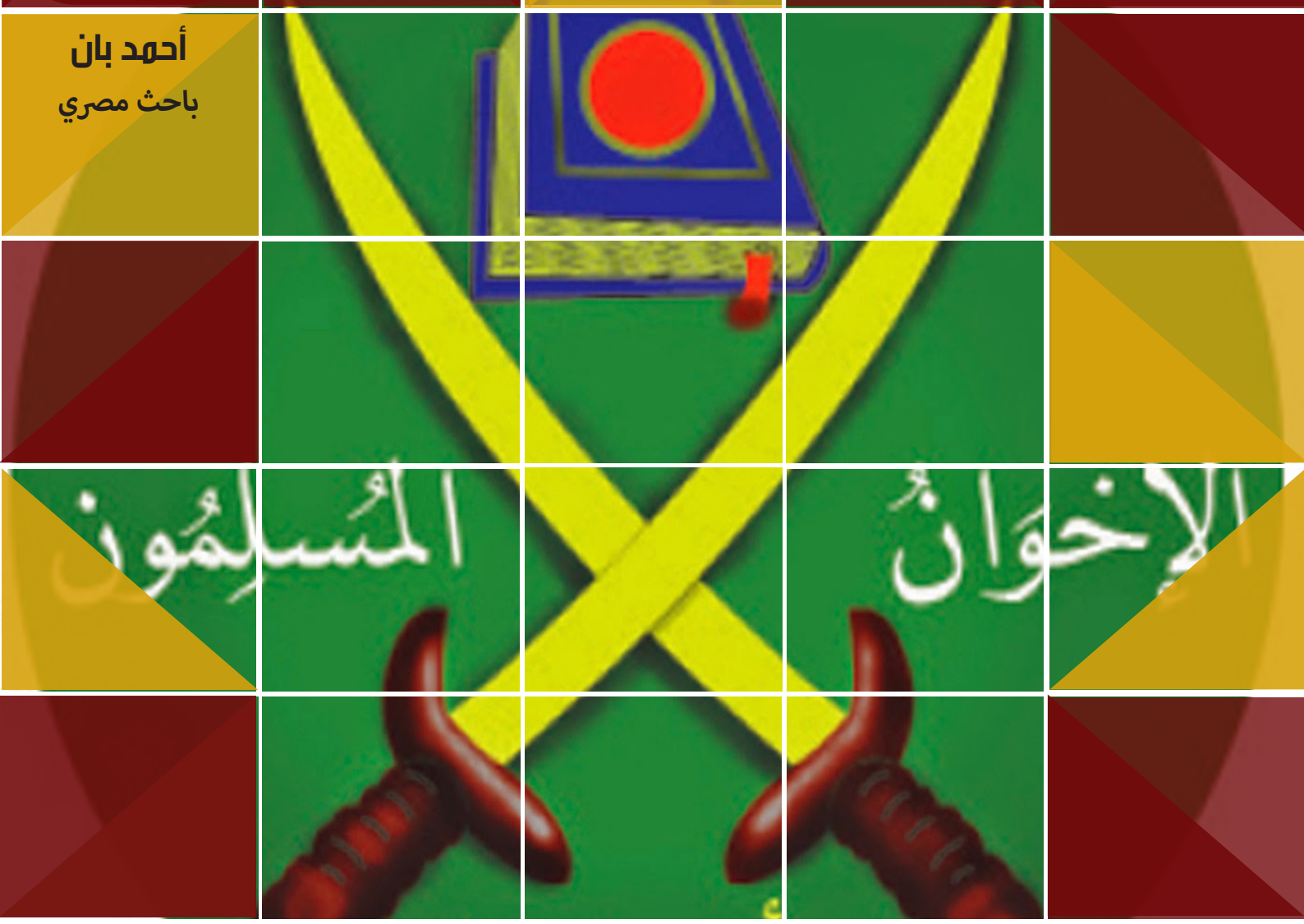

ملف قواعد الفكر الإخواني

21

النظام الخاص هو جوهر الجماعة

تحوّلت رسالة التعاليم لحسن البنا من خطاب موجّه خصيصاً من أجل الإعداد العقائدي لأعضاء النظام الإخواني الخاص، وتأهيلهم عسكرياً وأيديولوجياً لمهمة خاصة، وفق نية مبيّتة، إلى زاد عام يتم تعميمه على كلّ الأعضاء، ووجود تنظيمين في الجماعة مجرد تدرّج في الانتساب الإخواني الذي يمثل النظام الخاص فيه قمة الالتزام وحقيقة الدعوة الإخوانية.

أنشأ البنا النظام الخاص ليكون الذراع العسكرية التي ستنفذ ما يوكل إليها من أعمال عنف

زاد النظام الخاص

كتب حسن البنا «رسالة التعاليم» الرسالة الأشهر ضمن رسائله العشرين، لتكون الزاد الفكري والأيديولوجيا الخاصة بأعضاء النظام الخاص، الذي كان يهدف إلى إعدادهم إعداداً خاصاً، ليكونوا جيش الجماعة، أو الذراع العسكرية التي ستنفذ ما يوكل إليها من أعمال عنف، في الداخل والخارج.

لذا حرص حسن البنا، في مقدمة تلك الرسالة، أن يقول بوضوح: «فهذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين، الذين آمنوا بسموّ دعوتهم وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجّه هذه الكلمات الموجزة، وهي ليست دروساً تحفظ لكنّها تعليمات تنفَّذ»، ثم يردف قائلاً: «أمّا غير هؤلاء فلهم دروس ومحاضرات وكتب ومقالات ومظاهر وإداريات، ولكلٍّ وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات، وكلاً وعد الله الحسنى».

هكذا، بوضوح، يكشف حسن البنا أنّ لديه تنظيمين؛ بحيث يتخفى النظام الخاص داخل النظام العام الذي يؤكّد أنّ له سياقه، ومناهجه الخاصة، وكتبه، ومظاهره

سعيد حوى، القيادي في جماعة الإخوان السورية

ونظامه الإداري، وهو الذي يستوعب طيفاً أوسع بالطبع، يلائمه وصف الجماعة بأنّها «دعوة سلفية، وحقيقة صوفية، وجماعة رياضية، وهيئة سياسية»، إلى آخر تلك الأوصاف الشمولية، التي تصلح في وصف الدولة ومؤسساتها، وهي النسيج الأوسع الذي يحتاج إلى خطاب آخر مطاط ومراوغ، يليق بهذا التباين في ألوان الطيف التي يشتبك معها، والتي تعبّر عن مجتمع متباين المشارب والاتجاهات والرغبات والخطابات بالتالي.

في منتصف الثمانينيات، اكتشف محمد فريد عبدالخالق، أحد قيادات الجماعة من التنظيم المدني (تمييزاً عن النظام الخاص أنّ مصطفى مشهور، قد عمّم رسالة التعاليم على الصف الإخواني، فعاتبه قائلاً: إنّ «حسن البنا لم يكتب تلك الرسالة لأعضاء الجماعة من التنظيم المدني؛ بل لأعضاء النظام

يكشف البنا في رسالة التعاليم أنّ لديه تنظيمين بحيث يتخفى النظام الخاص داخل النظام العام

الخاص، وإنّ تعميمها على الصفّ الإخواني يجعل الجماعة كلّها نظاماً خاصاً ويعسكر حركتها، بعدما عانت الجماعة من آثار هذا الخطأ الكارثي الذي تورطت فيه الجماعة، وقد كانت نية البنّا حلّ هذا النظام الخاص، والعودة إلى إطار التنظيم المدني العام»، هكذا كان عبدالخالق يظنّ فلم يكن يوماً عضواً في النظام الخاص، لكنّ مشهور وجماعته من قيادات النظام الخاص، كانوا قد بسطوا سلطتهم بالفعل على التنظيم، وقرّروا استعادة ميراث النظام الخاص، وإخفاء هيكله داخل النظام العام للجماعة، حتى تتهيّأ الظروف لانفصاله من جديد، وقد استقال فريد عبدالخالق من مكتب الإرشاد على خلفية هذا الموقف.

مانفستو الجماعة

ومضت مسيرة الجماعة معتقدة أنّ رسالة التعاليم هي مانفستو الجماعة، الذي يجب أن يتقيد به الجميع، حتى عدّها الشيخ محمد الغزالي «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»، وهو العنوان الذي أطلقه على أحد شروح تلك الرسالة، التي تضمّ عشرين أصلاً لأحد أركان البيعة العشرة في تلك الرسالة، وهو ركن الفهم، أكثر الأركان التي أثبتت الجماعة بحالها تنكّرها له، باعتباره نتاج إعمال العقل الذي تعاديه، وتعتقد أنّ له سلطاناً في مواجهة سلطان الجماعة على الأعضاء، وأنّ العضو الأصيل هو الذي يغلب تعليمات القيادة على ما يراه عقله.

يقول البنا، في ركن الثقة للعضو: «هل هو مستعد لأن يفترض في نفسه الخطأ، وفي القيادة الصواب؟ هل هو مستعد لوضع ظروفه الحيوية تحت تصرف الدعوة؟ وهل تملك القيادة في نظره حقّ الترجيح بين مصلحته الخاصة ومصلحة الدعوة العامة؟».

هذه الرسالة يؤكّد سعيد حوى، القيادي في جماعة الإخوان السورية، في كتابه «في آفاق التعاليم»، أنّه من لم يعرفها لا يعرف دعوة الإخوان المسلمين، ومن لم يلتزم بها فليس من الإخوان المسلمين، وإن حمل الشارة، وادّعى الاسم».

وحوى لا يسوق الأمر إلّا في إطار تقسيم الجماعة لمراتب متدرجة للعضوية؛ حيث ينكر فكرة التنظيمين، وأنّ الأمر لا يعدو كونه تدرجاً في العضوية، حيث يقول: «تنقسم رسالة التعاليم إلى مقدمة وقسمين وخاتمة، ومن المقدمة والخاتمة يفهم أنّ هذه الرسالة رسالة عمل، وهي لنوع خاص من الإخوان،

من في الدائرة الأقرب للبنا كانوا يعرفون مرامي الرجل الحقيقية وأهداف أجندته الخفية ووسائله

هم الإخوان الحقيقيون، وليس فعل الأستاذ البنا غريباً؛ إذ يخصّ بعض الإخوان بخطاب خاص، فذلك من أسلوب القرآن، ومن سنّة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقد خاطب القرآن الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وخاطب أهل الإيمان، وخاطب غيرهم، فأن يخصّ الأستاذ البنا نوعاً من الإخوان بنوع من الخطاب، فتلك فطنة منه رحمه الله».

يؤكّد حوى هنا، أنّ الإخوان الحقيقيين هم من تحققوا برسالة التعاليم، وهم لديه أعضاء النظام الخاص الذين يلتزمون بتلك التعليمات العسكرية، التي تحدّد لهم واجباتهم الدينية والدنيوية في شكل تعليمات وواجبات عسكرية، لا تجوز مخالفتها، ولا تترتب عليها عقوبات أخروية فقط؛ بل عقوبات في الدنيا تملك قيادات التنظيم توقيعها على المخالف.

يبرّر حوى الأمر بقوله: «لقد عرف الأستاذ البنا، رحمه الله، أنّه ليس لدى كلّ مسلم في عصرنا استعداد للقيام بأرفع أنواع الالتزام الإسلامي (عضوية النظام الخاص وممارسة الإرهاب أرفع أنواع الالتزام الإسلامي!)، وعرف أنّ الإسلام يحتاج إلى نوعية خاصة، ولذلك جعل في ترتيب دعوته أن يكون الإخوان على درجات في العضوية؛ فهذا منتسب، وهذا مساعد، وهذا عامل، وهذا مجاهد، وهذا نقيب، وهذا نائب، وكانت هذه الرسالة للإخوة المجاهدين ليستنهض همم المسلمين جميعاً إلى ذلك، وليعرف هذا النوع من الإخوة ما هي شروط الحركة الجهادية»، ثم يجزم بالقول إنّ الإسلام لن ينهض إلّا بهذه النوعية، ولن تستطيع هذه النوعية أن تحقق شروط النهضة إلّا إذا التزمت بهذه الرسالة، والتزمت بأركان البيعة، وأدّت واجباتها».

كم منّا وليسوا فينا

هذا الكلام ليس غريباً على سعيد حوى، الذي أنشأ النظام الخاص السوري في السبعينيات، وهو تنظيم الطليعة المقاتلة، الذي خرجت منه كلّ القيادات من الجنسية السورية في القاعدة وداعش.

يبدو سعيد حوى أعرف وأخبر بالجماعة من فريد عبدالخالق، الذي كان ضمن النسيج الأوسع للجماعة، الذي خبّأ فيه البنا نظامه الخاص، الذي التهم ما يستطيع هضمه من أعضاء النظام العام المدني، ومن أدرك حقيقة الأساليب التي ستسلكها الجماعة خرج منها، غير نادم على خروجه من جماعة تربّي أعضاءها على القطيعة مع المجتمعات،

من في الدائرة الأقرب للبنا كانوا يعرفون مرامي الرجل الحقيقية وأهداف أجندته الخفية ووسائله

وتنظمهم أعضاء في ميليشيات عسكرية قد تتباين فيها الأدوار، لكنّها تكمل معاً منظومة الإرهاب.

يعبر فريد عبدالخالق عن شرائح واسعة غادرت الجماعة، بعدما أدركت خديعة أنّهم لم يكونوا سوى جمهور واسع لديه عاطفة دينية، تأثر بمواعظ حسن البنا، لكن من كانوا في الدائرة الأقرب، كانوا يعرفون مرامي الرجل الحقيقية وأهداف أجندته الخفية ووسائله، وأن رسالة التعاليم ليست منهجاً خاصاً بأعضاء النظام الخاص؛ بل يجب أن تكون منهج الجماعة الخاص لمن يتقبل تلك الأفكار، وتناسب مزاجه النفسي بالأساس.

لذلك لا ينبغي أن يستغرب البعض إذا أجابه بعض الإخوان، أنّهم لم يدرسوا الرسالة الأشهر، ولم يقرؤوها؛ فالجماعة لا تبدأ في المراحل الأولية في تقرير تلك الرسالة في مناهجها، وربما يبقى العضو ضمن جمهور الجماعة وأنصارها، لكنّه ليس عضواً في التنظيم، وإن حمل الشارة، وادّعى الاسم، كما يقول سعيد حوى، وكم من الأعضاء ما يزالون يحملون الشارة ليلتقطوا صوراً يطيّروها للجزيرة، لتدّعي مظاهرة في قرية أو نجع، وهم لم يعرفوا رسالة التعاليم، ولا يعلمون أنّهم مجرد ستار يخفي أعضاء التنظيم، لم يقرؤوا مانفستو الإخوان، ولم يعرفوا حقيقة أفكارهم، صدق عليهم ما كان يردده الإخوان، دون أن يفهمه غيرهم: «كم منّا وليسوا فينا، وكم فينا وليسوا منّا».

22

وهْم المؤسّسية والتشاركيّة

لم يلفت المراقبين في صفات حسن البنا المؤسِّس لجماعة الإخوان شيءٌ مثل ولعه المرَضي بالنظم والهياكل الإدارية، وضبط اللوائح لتكون في خدمة طموحه الشخصي الجارف، والمرشدين العامين الذين جاءوا بعده.

استوعبت الجماعة طاقات الأعضاء ببناء تنظيمي محكم أشعرهم دوماً بأنّهم جزء من خطة كونية لنصرة الدين

بناء تنظيمي محكم

هذه الجماعة التي يلامس عمرها اليوم التسعة عقود، ومثّلت رقماً صعباً في المعادلة السياسية عبر عقود، لم تكن لتستمر في الوجود طوال كل تلك السنوات دون بناء تنظيمي محكم، استوعب طاقات الأعضاء وأشعرهم طوال الوقت بأنّهم جزء من خطة كونية لنصرة الدين وحكم العالم.

لذا اجتهد البنا في بناء صيغ تنظيمية لم تكن معروفة في زمنه، بما يشي بدعم غامض تلقّاه في تلك المساحة، ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥ وبعد بناء قاعدة واسعة من أنصار فكرته بدأ في بناء تنظيمه ووضع قانون النظام الأساسي، الذي أجريت عليه بعض التعديلات بعد مرور ثلاث سنوات بمعرفة البنا أيضاً، تعزيزاً لسلطاته وصلاحيته والتأكد من السيطرة الكاملة على الأعضاء.

تحدد الشكل التنظيمي للجماعة بعد اختيار مرشدها الثاني حسن الهضيبي، الذي أتى على رأس مكتب الإرشاد والهيئة التأسيسية التي اختار البنا أعضاءها بنفسه، يليها نائب المرشد ثم الوكيل.

كانت الهيئة التأسيسية بمثابة مجلس شورى الجماعة الذي لم يستشر في أي شيء؛ بل تلخص دوره في تأييد قرارات المرشد، الذي تنتخبه تلك الهيئة مدى الحياة، وفي حال وفاته أو عجزه يقوم بعمله وكيله إلى أن تجتمع الهيئة في خلال شهر لانتخاب مرشد جديد، عملياً لم ينفذ هذا البند أبداً فعندما دخل المرشد الخامس مصطفى مشهور غرفة الإنعاش لشهور لم يحل أحد محله ولم ينتخب مرشد جديد.

لجان وأقسام ولوائح لا تحكم

ضم الهيكل عدداً من اللجان والأقسام الفنية التي كان دورها تفريغ طاقات الأعضاء وليس توظيفها؛ فقد ظلت هناك قناعة راسخة لدى كل مرشد قاد الجماعة بأنّها مجرد جيش، والجيش الذي يعاني البطالة يكثر فيه الشغب، لذا بدت تلك الأقسام مناشط لتفريغ الطاقات وكتابة التقارير والرؤى التي لم تستفد منها الجماعة أبداً، في مقابل إرادة المرشد التي لا تُردّ.

ضمت تلك الأقسام عناوين متعددة بتعدد شرائح أعضاء الجماعة؛ فهذه لجنة العمال، وتلك لجنة الفلاحين، وأخرى لنشر الدعوة، وغيرها للمهن، فضلاً عن لجان مالية وسياسية وقانونية وإحصائية وخدمية ولجنة للفتوى.

اجتهد البنا في بناء صيغ تنظيمية لم تكن معروفة بما يشي بدعم غامض تلقّاه في تلك المساحة

ضمن أقسام الجماعة كان قسم الجوالة الذي كان المظلة التي أخفى فيها البنا نيته في إنشاء تنظيم مسلّح هو النظام السري أو النظام الخاص، الذي تشعب بين جهاز مدني تتجه عملياته للدولة، وجهاز الجيش الذي ينشط داخل القوات المسلحة، وآخر للبوليس ينشط داخل جهاز الشرطة.

كان هذا الجهاز هو الأهم لدى حسن البنا والذراع الضارب لحركته، ونظرياً كانت هناك قيادة مركزية مكونة من المرشد العام والهيئة التأسيسية تلتقي في المركز العام لتدير كل تلك اللجان والأقسام، لكن عملياً كان البنا هو الآمر الناهي صاحب القرار والتدبير الأوحد.

رغم أنّ اللوائح الذي حدّدت عدد أعضاء مكتب الإرشاد بـ١٢ عضواً، تسعة منهم من القاهرة وثلاثة من الأقاليم، إضافة إلى المرشد أو الهيئة التأسيسية التي تراوح عدد أعضائها بين ١٠٠ و١٥٠ عضواً اختارهم البنا بنفسه، إلا أنّ الهيكل التنظيمي منذ نشأة الجماعة لم يثبّت عدداً محدداً لأعضاء مكتب الإرشاد أو الهيئة التأسيسية التي تعد بمثابة مجلس الشورى، وهو أمر تعمّده البنا لكي يؤبّد سيطرته على أي قرار، من خلال التدخل في حجم المكتب أو مجلس الشورى بما يعزّز سلطته، ويذكر في هذا السياق أنّ خيرت الشاطر زاد عدد أعضاء مجلس الشورى، ليتمكن من تمرير قرار بمنافسة الإخوان على الانتخابات الرئاسية المصرية في العام ٢٠١٢ رغم أنّ ٨٠٪ من أعضاء المجلس صوّتوا برفض القرار، فكان الحلّ زيادة العدد، مع ممارسة ضغوط على الأعضاء عبر حوافز مالية، ليسفر التصويت عن قبول الترشح للمنصب بفارق ٤ أصوات.

تركّز السلطة في يد واحدة

لعبت شخصية القيادة دوراً بارزاً على حساب الهياكل التنظيمية، وبقي ظلها ثقيلاً على قرارات الجماعة حتى مع غياب قيادات كاريزمية.

كان البنا مركز السلطة الفعلية ومحور عملية صناعة القرار، وقد منح نفسه سلطة مطلقة، فكان هو الذي يختار القيادات ويحدد اختصاصات الهيئات المختلفة، وهو من يوافق على العضوية وكانت له مقابلات واتصالات لا يعرفها الآخرون، وقد عاهده الأعضاء على السمع والطاعة، انعكس ذلك كله في شكل اتخاذ القرارات بالإجماع وليس بالأغلبية.. كانت سيطرته على الأعضاء واستلابه لهم كاملاً، وقد كان يرفض اعتبار الشورى ملزمة.

كانت الهيئة التأسيسية بمثابة مجلس شورى الجماعة الذي لم يستشر بل اقتصر دوره في تأييد قرارات المرشد

اتسم نمط القيادة بالشخصانية والفردية وتركّز السلطة في يد واحدة، لم يتغير ذلك كثيراً مع موت البنا؛ حيث بقيت السلطة الفعلية بيد المرشد، باستثناء فترتي التلمساني وأبو النصر اللذين كانا مجرد مرشدين صوريين، بينما كان المرشد الفعلي هو مصطفى مشهور وحلقته الأضيق من رجال النظام الخاص، والقطبيين الذين كانوا جميعاً قوام قيادة الإخوان منذ مطلع السبعينيات وحتى اليوم.

جمود هيكلية الجماعة

ولم يجرِ تغيير على هياكل الجماعة حتى مع حلها في العام ١٩٤٨ بعد اكتشاف أمر النظام الخاص وزيادة عملياته الإرهابية في الساحة المصرية، وحتى بعد عودة الجماعة على يد حكومة الوفد في العام ١٩٥١ لم تلبث ثورة يوليو ١٩٥٢ أن انطلقت واشتعلت معها طموحات الجماعة في حكم مصر والوصاية على الثورة، مما أدى إلى صدامها مع الثوار وحلها من جديد في العام ١٩٥٤.

عندما عادت الجماعة إلى العمل في العام ١٩٧١ مع إفراج السادات عن أعضائها المعتقلين فيما عرف بمجموعة الـ١١٨، بدا أنّ الجماعة لم تتخلص من بنائها التنظيمي القديم، بل جددته، بينما اقتصر الظاهر منه على المرشد العام ونائبيه ومكتب الإرشاد، أما الهيئة التأسيسية التي تسمّت باسم مجلس الشورى فلم تستطع الانعقاد بطبيعة الحال.

لكن توجد العديد من المؤشرات التي تشير إلى أنّ الرجل القوي مصطفى مشهور قام بمحاولات بين عامي ١٩٧٦ و١٩٨١، لإعادة تشكيل الهيكل التنظيمي وضمان تسكين رجاله في مفاصله، بعد أن أبعد الشخصيات الأكثر اعتدالاً وجنوحاً للعلنية والمدنية مثل؛ محمد فريد عبدالخالق وصالح أبورقيق.

في العام ١٩٩٢ أعلنت السلطات المصرية عن اكتشاف محاولة لإعادة تشكيل الهيكل التنظيمي للجماعة فيما عرف آنذاك بقضية سلسبيل، وفي العام ١٩٩٥ أعلن عن كشف محاولة أخرى لإعادة هيكلة التنظيم من خلال إجراء انتخابات داخلية لاختيار أعضاء مجالس شورى المحافظات ومجلس الشورى العام؛ حيث ألقت الأجهزة الأمنية القبض على ٨٢ من أعضاء الجماعة بتهمة محاولة إحياء تنظيم يسعى لقلب نظام الحكم، واكتشاف خطة نشرتها الصحف آنذاك سميت بخطة التمكين التي تحدثت عن اختراق مؤسسات الدولة بهدف السيطرة عليها.

تشهر قيادات الجماعة اللوائح في وجوه معارضيها وتعتصم بالأخوة بديلاً لها إذا انتصرت لما يخالف هواها

السماح بتغييرات شكلية

حاولت الجماعة في التسعينيات تغيير صورة التنظيم السري الذي يفتقر للمؤسسية وتتركز فيه السلطة؛ حيث سمحت ببعض التغييرات الشكلية مثل إتاحة اجتماع مجلس الشورى مرتين في العام بدلاً من مرة واحدة، وفي مرات إضافية إذا طلب المرشد ذلك، بينما بقي هو رئيس مجلس الشورى وهو من يحدد جدول الأعمال.

واجه التنظيم زيادة في أعداد الشباب الطامحين للقيادة وتأكيد ذاتهم، فتفتق ذهن القيادة عن مسارات العمل في النقابات والاتحادات الطلابية ثم المجالس الشعبية المحلية أو البرلمان؛ فدفعوا بهؤلاء الشباب في تلك المسارات تفريغاً لطاقاتهم من جهة، ومراكمة لخبرات تعوز الجماعة من أجل لحظة التمكين من جهة أخرى، لكن بقيت مواقع مكتب الإرشاد ومجلس الشورى العام عصية إلا على أعضاء الحرس الحديدي أهل الثقة، حتى أنّ عصام العريان المحسوب على ما يسمى افتراضاً بجيل الإصلاحيين، لم يصعد إلى عضو مكتب الإرشاد في العام ٢٠٠٩ بعد خلو مقعد بوفاة عضو رغم حصوله على ٤٠٪ من الأصوات، وفقاً للائحة التي كانت قيادات الجماعة تشهرها في وجوه الغاضبين عندما تؤيد قراراتها، بينما تدعي الاعتصام بالأخوة بديلاً عن اللائحة إذا انتصرت لما لا يوافق هوى القيادة.

لم تُحترم اللوائح أبداً داخل الجماعة، ولم تؤدِّ الهياكل وظيفتها بعيداً عن سلطة المرشد أو الحلقة الأضيق، وظلّت الهياكل مجرد خطط إشغال تحقق تفريغ طاقات الأعضاء جنوداً في جيش لا ينبغي أن يعاني البطالة حتى لا يثير الشغب بمزيد من الأسئلة الحرجة، كما تكفّلت تلك اللجان والهياكل والأقسام بنشر دعاية عن مؤسسية التنظيم وجاهزيته لإدارة دولة ولو كانت بحجم مصر.

إذن نهض الهيكل كشكل من أشكال الدعاية التي تراكمت آثارها في وعي المصريين عبر التكثيف المتواصل، ما أسفر في النهاية عن النجاح في خداع قطاعات من الناس ذهبوا للتصويت لمرشحي الجماعة في البرلمان أو في مقعد الرئاسة، ليتبين للجميع فور انقشاع الغبار كما يقول المصريون أنّه «لم يكن تحت القبة شيخ».

23

ازدواجية الخطاب الإخواني تجاه الأزهر

لا يستطيع المراقب أو الباحث أن يفهم الموقف الحقيقي للإخوان المسلمين تجاه هيئة أو فصيل، اعتماداً على خطابهم الظاهر الذي يعتمد التقية سلوكاً ومنهاجاً، وعند تحليل موقف الجماعة من الهيئات الدينية التي كانت تراها في أبحدياتها تهديداً لحضورها وتأثيرها في الساحة المصرية، على وجه الخصوص، من المدهش ذلك الموقف المعلن عبر خطاب مهادن يعدّ تلك الهيئات مؤسسات يمكن أن يتعاون معها الإخوان في أداء رسالتها، مع الحرص على إبداء قدر وافر من الاحترام اللازم لها، ولرجالها، ومنهجها، وسلوكها، بما يخالف الموقف الحقيقي.

لا يمكن فهم الموقف الحقيقي للإخوان المسلمين تجاه هيئة أو فصيل اعتماداً على خطابهم الظاهر

احترام في الظاهر

من هذه الهيئات الدينية؛ الأزهر الشريف، المرجعية الأهم للمسلمين السنّة حول العالم، الذي ظلّ أهمّ جامعة إسلامية معنية بنشر العلوم والثقافة الإسلامية على مدى مئات السنين، وخرج آلاف الدعاة المؤهلين، الذين انتشروا في كلّ العالم يدعون للنسخة الوسطية للإسلام؛ بل حرصت الدولة المصرية، منذ عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، على أن تتيح للكثيرين من أبناء الأقليات والشعوب الإسلامية الدراسة بالأزهر، وتبني النسخة المعتدلة للدين، حرصاً من الدولة المصرية على أن تواجه الحصاد المرّ الذي خلّفته دعاية الإخوان وغيرهم من الجماعات الدينية، التي أساءت تفسير الإسلام، وقدّمت منه نسخاً تتوافق مع مشروعاتهم؛ السياسية أو السرية.

عند تحرّي رأي الإخوان في الأزهر، يظهر أنّ الخطاب الرسمي المعلن يحفل بعبارات التقريظ والاحترام؛ حيث يكشف الكتاب المعتمد عن تاريخ الجماعة من المجلد الثالث تحت عنوان «الإخوان والمجتمع المصري»، أنّ «الإمام البنا كان يأمر إخوانه الدعاة الذين تربّوا على يديه، أن يجتنبوا إعطاء الفتوى الشرعية في أيّ أمر يعرض عليهم، سواء فتوى خاصة، أو في حفل عام، أو في خطبة أو درس في مسجد، فإذا سُئل عن شيء من ذلك، فإنّه كان يقول: هذه من أمور الدين والعلم، فاسألوا عنها السادة العلماء ويحيلها إلى العلماء»، مبرراً ذلك، بحسب ما جاء في الفقرة نفسها، أنّه كانت له في ذلك غايات عديدة، منها: أنّه يبرز توقيره للأزهر وعلمائه، حتى لا تتحرك في نفوسهم معاني الحقد والحسد، وكان في ذات الوقت أبعد وأعمق؛ نظراً إلى أنّه يعلم أنّ أكثر الطوائف المنتسبة إلى دعوته لم يكن بهم من علم بالمسائل الشرعية، ما يؤهّلهم لأن يكونوا أهلاً للفتيا».

اتهامات بالردة والكفر

لم يحترم الإخوان ذلك تاريخياً، فقد كان السيد سابق، هو مفتي التنظيم، سواء العلني أو السري، وكان الإخوان يحتقرون فتاوى الأزهر والأوقاف، ويعدّونها مُسيَّسة، كما شكّلوا لاحقاً هيئات وتشكيلات، ضمّت بعض خريجي الأزهر من أعضاء الجماعة، ممن لم يتبحّروا في تخصصاتهم العلمية، وشكّلت منهم هيئات «كاتحاد علماء المسلمين»، و«علماء الكنانة»، وظهرت بيانات ممهورة بتوقيع أعضاء التنظيم تحرض على القتل، في أعقاب ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣، تحكم بردة وكفر هيئات وأشخاص، كما ورد في بيان من يسمّون

كان الإخوان يقللون من شأن فتاوى الأزهر والأوقاف ويعدّونها مُسيَّسة وسعوا لتشكيل هيئات دينية منافسة

«علماء الكنانة»، الصادر في٢٧ أيار (مايو) ٢٠١٥، بعد أن يئست الجماعة من تحريك المشهد المصري عبر المظاهرات، فبدأ دور تلك الهيئات في التحريض على قتل عناصر الشرطة والجيش والقضاة والإعلاميين.

ومما ورد في هذا البيان «الحكام والقضاة والضباط والجنود والمفتون والإعلاميون والسياسيون، وكلّ من يثبت يقيناً اشتراكهم، ولو بالتحريض، حكمهم في الشرع أنّهم قتلة، تسري عليهم أحكام القاتل، ويجب القصاص منهم بضوابطه الشرعية، مضيفاً أنّ الدفاع بأية وسيلة مشروعة عن النفس والعرض والمال حقّ مشروع؛ بل واجب شرعي».

لم ينطلق عداء الإخوان للأزهر أو المؤسسة الدينية الرسمية من تغيّر موقف تلك الهيئات منها، او اتهام الإخوان لهم بالاشتراك في تبرير إجراءات أو سياسات بحقّهم؛ فالأمر أقدم من ذلك في الحقيقة، وهو ما يكشف الرأي الحقيقي للإخوان في الأزهر، منذ الثلاثينيات، وهو ما أكّده محمود عبدالحليم، مؤرّخ الإخوان، في كتابه «الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ»؛ حيث كتب يقول: «أمّا الأزهر، وهو المصدر الوحيد الذي يتلقى الناس منه تعاليم دينهم، فإنّه كان أداة طيّعة في يد المستعمر عن طريق الحكام، نشر في الناس صورة باهتة مشوّهة للإسلام، فكان الإسلام في نظر الناس بفضل الأزهر، لا يتعدى طقوساً تؤدَّى داخل المساجد أو البيوت، وكادت الاستكانة أن تكون مرادفة للإسلام في نظرهم».

محاولة هدم شرعية الأزهر

هكذا يفصح أحد الإخوان عن حقيقة شعور أعضاء الجماعة تجاه الأزهر، بما يؤكّد أنّ الكلام السابق لحسن البنا محض نفاق مكشوف، يعكس ما درج عليه من خطاب مزدوج تجاه هيئة يعرف الشعب المصري دورها في خدمة الدين، والدفاع عن الأمة، وما يزال خطاب عبدالناصر عقب العدوان الثلاثي العام ١٩٥٦، من على منبر الأزهر، مؤكداً أهمية استدعاء قوة هذا الميراث التاريخي، لهذه المؤسسة في الدفاع عن الأمة، في مواجهة الفرنسيين والإنجليز، وغيرهم ممّن اعتدوا على سيادة هذا البلد عبر التاريخ.

كان البنا يدرك تلك الحقيقة جيداً، وشرعية هذه المؤسسة في النفوس؛ لذا حاول هدم تلك الشرعية عبر هذا الموقف المزدوج؛

عقب ثورة ٣٠ يونيو ظهرت بيانات بتوقيع أعضاء التنظيم تحرض على القتل وتحكم بردة وكفر هيئات وأشخاص

بقي الأزهر عصياً على توظيف الإخوان وإن تمكن بعض عناصر الجماعة من اختراقه

حيث زاحمت نسخ الإخوان، ومن لفّ لفيفهم من تلك الجماعات الحضور الراسخ للتدين الأزهري المعتدل.

كما أنّ الديباجة التي تتحرك بها الجماعة وسط شعب متديّن، ما كان لها أن تمرّ على علماء الأزهر والمجتمع، الذي يحترم سلطتهم المعنوية، التي كان لا بدّ من كسرها عبر هذا التدبير المتحايل؛ موقف علني يحترم الأزهر ورجاله، وآخر سري يغتاله معنوياً ويتهمه بهدر حقائق الدين والترويج لنسخة متخاذلة منه.

كانت قناعة الإخوان؛ أنّهم وحدهم من يملكون التصور الصحيح للدين، لذا كان البنا يكرّر مخاطباً الإخوان: «أحبّ أن أقول لكم هنا، بكل وضوح، أنّ دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية، وأنّكم ورثة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه على قرآن ربّه، وأمناؤه على شريعته، وعصابته التي وقفت كلّ شيء على إحياء الإسلام، في وقت تصرفت فيه الأهواء والشهوات، وضعفت عن هذا العبء الكواهل، وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحقّ أن يأتيها الناس، ولا تأتي هي أحداً، وتستغني عن غيرها، إذاً هي جماع كل خير، وما عداها لا يسلم من النقص، إذاً فأقبلوا على شأنكم، ولا تساوموا على منهاجكم، واعرضوه على الناس في عزّ وقوة، فمن مدّ لكم يده على أساسه فأهلاً ومرحباً، في وضوح الصبح وفلق الفجر وضوء النهار، أخٌ لكم يعمل معكم،

لا يمثل عداء الإخوان للأزهر أو المؤسسة الدينية الرسمية تغيّراً في المواقف فالأمر أقدم من ذلك

يؤمن بإيمانكم، وينفّذ تعاليمكم، ومن أبى ذلك فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبونه»، بهذه الشوفينية ينظر البنا للهيئات الدينية، التي يراها منافسةً له في سوقه، ساحة العقول والقلوب التي يريد أن يستلبها، وهو الذي يسعى إلى توظيف كلّ هيئة لخدمة جماعته، فإن استعصت عليه لقوة شأنها، نافقها حتى يستطيع اختراقها والنفاذ لها، وتوظيفها من أجل مشروعه؛ لذا حرص، في المادة ١٨ من القانون الأساسي للجماعة، أن يؤكد على هذا المعنى «كلّ جماعة تعلن احترامها لهذا القانون وتضامنها مع الإخوان في تنفيذه، وتخطر المكتب بذلك، تعدّ دائرة من دوائر الإخوان المسلمين، مع بقاء اسمها، ونظامها الخاص بها، وشعائرها، وتعامل معاملة الدوائر الإخوانية».

مساعي الاختراق والتوظيف

يبدو مؤلف «أوراق من تاريخ الإخوان المسلمين» أكثر صراحة في التعبير عن مراميه، يقول: «ولقد كان مسلك الأستاذ البنا من الأزهر التودّد إليه، ولم يكن مسلك مداهنة، ولا مصانعة؛ بل كان مسلك من يؤمن، أولاً، بأن تبقى للأزهر هيبته، وثانياً: بأنّه لا بدّ من أن تبذل الجهود لاستصفاء رجاله، ليكونوا أهل دعوة حقيقية».

الأزهريون من وجهة نظر الإخوان ليسوا إذاً أهل دعوة حقيقية، ثم يكمل قائلاً: «وكان من ثمرة هذا المنهج الذي اتبعه الإمام البنا نحو الأزهر، أن فتح الأزهر قلوباً وأبواباً، وأساتذة وطلاباً، لدعوة الإخوان المسلمين، كما أنّه ذوّب الاحتكار الذي كان يدعيه رجال الأزهر للدعوة الإسلامية، خاصة بعد أن التحق بعض طلبة الأزهر بالإخوان، وما لبثوا أن أصبحوا أساتذة ومدرسين، ووعّاظاً لهم التوجيه، ولهم القيادة في الأزهر، ووصل بهم الأمر أن حوّلوا الأزهر إلى ثكنة للإخوان، تشبه ثكنة الإخوان في الجامعة».

كان هذا هو الهدف إذاً؛ اختراق الأزهر كاختراق كلّ بنى الدولة، من أجل توظيفه، وتحويله إلى ثكنة، وبتأمّل لفظ ثكنة جيداً، فقد كان أثيراً للبنا، ضمن تدبير يبدأ بالمداهنة والتمسكن، حتى تتهيأ ظروف التمكّن، ليخترق الأزهر، شأنه شأن غيره من المؤسسات، ليكون في خدمة الجماعة، لكن لم تسر الأمور كما أراد الإخوان، فبقي الأزهر عصياً على التوظيف، شوكة في حلق الجماعة، وإن لم يستعصِ على الاختراق من بعض عناصر الجماعة.

24

العزلة الشعورية عن المجتمع

«ليس لنا أن نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها، ولا في شيء من أوضاعها، ولا في شيء من تقاليدها، مهما اشتدّ الضغط علينا، حين نعتزل الناس؛ لأنّنا نحسّ أنّنا أطهر منهم روحاً، أو أطيب منهم قلباً، أو أرحب منهم نفساً، أو أذكى منهم عقلاً، لا نكون قد صنعنا شيئاً كبيراً، اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة، إنّ العظمة الحقيقية أن نخالط الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم، ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع، ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومثلنا السامية، أو أن نتملّق هؤلاء الناس، ونثني على رذائلهم، أو أن نشعرهم بأنّنا أعلى منهم أفقاً، إنّ التوفيق بين هذه المتناقضات، وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد هو العظمة الحقيقية».

العزلة الشعورية بنت الاستعلاء الإيماني الذي يملأ الفرد الإخواني فتنتشي نفسه مستشعراً أنّه فوق عالمه ومجتمعه

الشعور بالتفوق

يعتقد كثير من الباحثين أنّ تلك الفقرة من كلام سيد قطب في كتابه «معالم في الطريق» كاشفة، إلى حدّ بعيد، وربما مفسّرة، لسلوك كثير من الإسلاميين الحركيين في مواجهة مجتمعاتهم، وفي القلب، بطبيعة الحال، الإخوان أكثر الناس إخلاصاً لما وجهت له تلك المقولات؛ العزلة الشعورية التي هي بنت الاستعلاء الإيماني، هذا الشعور الذي يملأ الفرد الإخواني، فتنتشي نفسه مستشعراً أنّه فوق عالمه وفوق مجتمعه، أرسله الله ليستنقذ هذا المجتمع من تلك الهوة السحيقة، التي نجا هو وحده منها؛ بعضويته في تلك الجماعة منها، لذا بدا مطالباً وفق هذا التوجيه القطبي، بألاّ يلجأ إلى الخيار الأسهل في اعتزال تلك المجتمعات، بألاّ يجاريها في شيء من قوانينها، أو أعرافها؛ لأنّه بعضويته في تلك الجماعة يبقى أطهر روحاً، وأطيب قلباً، وأذكى عقلاً.

كانت دعاية الإخوان الدائمة وسط قواعدهم؛ أنّ جماعتهم تضمّ أفضل عناصر المجتمع، لذا بدا حرصهم شديداً على استقطاب المتفوقين والنابهين في الجامعات والمهن، سبيلاً إلى تكريس هذا الشعور بالتفوق على غيرهم، بعد تسكينهم في

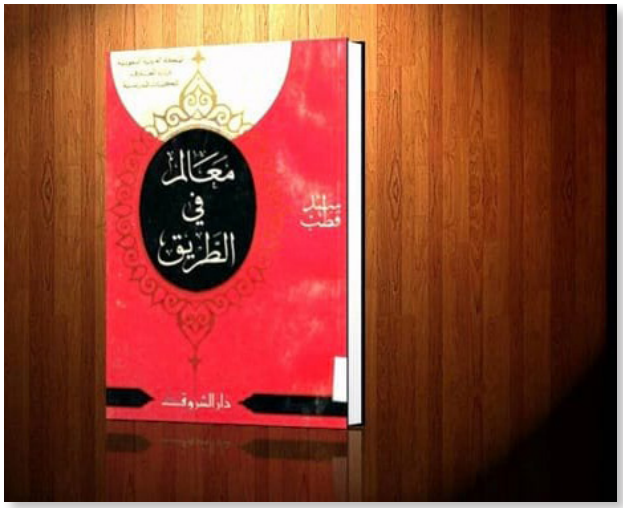

كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب

مناصب القيادة، تعزيزاً لهذا الشعور ما دام هؤلاء اكتملت لديهم صفات السمع والطاعة العمياء للقيادة العليا للتنظيم.

الاتصال البارد

يدعو قطب الإخوان إلى ممارسة لون من ألوان الانفصال الشعوري مع هذا المجتمع، بأن تبقى قلوبهم وعقولهم محجوبة عنه، فلا تصغي لصوته أو أنينه؛ بل تمارس شكلاً من أشكال النفاق بممارسة لون من ألوان الاتصال البارد، الذي يهدف، وفق تصوره، إلى تطهيرهم من دنسهم والارتفاع بهم إلى مستوى الإخوان، وهنا تبدو تزكية الإخوان لفهمهم للدين والدنيا راسخة، الأمر الذي لم يبدأ فقط مع سيد قطب في الحقيقة؛ فقد كانت توجيهات حسن البنا

كانت دعاية الإخوان الدائمة وسط قواعدهم أنّ جماعتهم تضمّ أفضل عناصر المجتمع

مشابهة، وإن كانت أكثر مراوغة، كما درج في كلّ كلماته.

فهو عندما يخاطب إخوانه بقوله: «أنتم صحابة رسول الله، ولا فخر، وحملة لوائه من بعده»، يؤكد هذا المعنى الذي ذهب له قطب، وعندما يؤكد لهم أنّ الناس هم من يجب أن يأتوا إليهم؛ فهو يعزّز هذا الشعور الشوفيني، الذي أثمر في حقيقة الأمر، وما يزال، ثماراً مرّة ما تزال المجتمعات تعاني منها.

سقوط الأقنعة

خرج الإخوان من حكم مصر، بعد عام بدت فيه نواياهم التي صدقتها أفعالهم، في بناء نظام يستبد بحياة الناس باسم الدين، وبدا أنّ تلك الوجوه التي رسمت ابتساماتها الزجاجية في محاولة خداع الناس عن حقيقة التنظيم، تتخلى عن أصباغها وابتساماتها المصنوعة، لتكشف عن وجه قبيح كاره للمجتمع والناس، له أذواقه الخاصة والشاذّة، يفرح في مصائبهم، ويراها جزاءً وفاقاً لما أصابهم بفعل ما صنعته أيديهم.

عبس الإخوان في وجوه من اكتشفوا حقيقة التنظيم من أعضائه، وانقلبت الأخوّة في الله التي لم تكن سوى أخوة التنظيم، إلى عداء مكشوف، وحملات اغتيال معنوي طالت الخصوم، تتهمهم بكلّ نقيصة، وتحاول هدمهم في نفوس أهليهم ومجتمعهم الضيق والواسع بكل طريق، فالتنظيم لا يتسامح أبداً مع من يكشف عوراته، أو ينتقده.

القطيعة والانفصام

أعادت العزلة الشعورية ترتيب العلائق الاجتماعية، ليصبح عضو التنظيم مقدماً في وعي الأعضاء على علاقة الدم والنسب، فانفصمت عرى العلاقات الأسرية، حتى أفتى أحد دعاتهم بأنّ الأخت لا تصل أبيها ما دام خالف موقفها السياسي، وانحاز إلى ثورة ٣٠ يونيو.

أنتجت العزلة الشعورية شكلاً مشوهاً مما يسمى لدى حركات الإسلام الحركي، بالولاء والبراء، الولاء للإخوان ومؤيديهم، والبراء من غيرهم ممّن خالفهم القصد والفكر، وتعزّزت القطيعة إلى انفصام كامل عن هذا المجتمع، وأصبح الإخوان بين ثلاثة نماذج: الأول نشط في انتهاج العنف قتلاً وتدميراً للممتلكات والمقدرات، والثاني قدّم الدعم اللوجستي في إخفاء تلك العناصر المنفذة، أو مساعدتها بكل الأشكال، وقسم ثالث

يدعو قطب الإخوان إلى الانفصال الشعوري مع المجتمع «الجاهلي» بأن تبقى قلوبهم وعقولهم محجوبة عنه

لم يتمالك نفسه من الفرحة في مواجهة كلّ فاجعة تصيب المصريين؛ سواء نفّذتها أيدٍ إخوانية أو قاعدية أو داعشية، فصدع بفرحته تلك إما عبر وسائط التواصل الاجتماعي، أو وسط دائرته الضيقة أو الواسعة، بحسب ما يسمح المقام.

انفصل الإخوان تماماً عن الشعور الوطني، فأصبحت سياسة اقتصادية، كتعويم الجنيه، التي هي أحد سياسات الإصلاح الاقتصادي التي تأخّرت، فرصة لإشعال الغضب في الصدور وتكفيرهم بالنظام السياسي ووعوده، رغم أنّ الإخوان كانوا سيمضون في الطريق نفسها، وربما بشكل أكثر توحشاً، ثقة في امتلاك أدوات الضبط؛ سواء عبر سلطة امتلكوها، أو تنظيم كبير سيطروا على أعضائه واستلبوهم، إلى حدّ انخراط تلك الجموع في تأييد القرار حتى قبل أن يعرفوه، كانت الجموع الصماء تمضي إلى مدينة الإنتاج الإعلامي؛ لترهب الإعلام، أو تمضي لحصار المحكمة الدستورية العليا، أو دار القضاء العالي، لتعلن تأييدها لإعلان دستوري يجعل الرئيس نصف إله، وتحصّنه من سؤال أو تعقيب، من أي رقيب رسمي أو شعبي.

أما الآن؛ فكلّ قرار للنظام السياسي هو عدوان على حياة المصريين، وكل سياسة إصلاح هي مؤامرة على الوطن والدين، رغم أنّهم هم في الحقيقة من جنوا على الإثنين، عبر وجودهم ذاته الذي كان أقدم مؤامرة عليهما.

أنتجت العزلة الشعورية فرداً يلوك عبارات باردة عن حبّ المصريين، والسعي لفدائهم بالغالي والنفيس، بينما هو يكرههم من أعماقه، ويتمنى أن يخلو له هذا الوطن من ناسه، ليكون على مقاس تطلعاته البائسة لا يجد غضاضة في استهداف مقدراته سبيلاً لذلك.

سلمية العنف!

خرج أحدهم في تموز (يوليو) ٢٠١٥، عبر فضائية «العربي» المملوكة للجماعة، وهو المدعو أشرف عبد الغفار، يقول: «نحن لم ولن نتحدث عن سلمية مطلقة أو عنف مطلق، وقد قلنا كثيراً إنّ هناك درجات من السلمية، مثل العمليات النوعية؛ كتفجير محطات الكهرباء، وهناك عمليات أبسط من هذه، أو أكثر من هذه».

وردّ عبد الغفار على سؤال المذيعة: «هل يعدّ استهداف محطات الكهرباء درجة من السلمية؟» قائلاً: «نعم، تفجير واستهداف

كلّ ما يجعل حياة المصريين بعد ثورة ٣٠ يونيو أكثر صعوبة أمر يسعد الإخوان ويشعرهم بالشماتة

محطات الكهرباء درجة من درجات السلمية».

هكذا، وبكل وضوح، يفصح قيادي إخواني عن خبيئة نفسه تجاه المجتمع والوطن؛ إنّ جعل حياة الناس في ظلام دامس، بفعل عمل تخريبي هو لديهم عمل سلمي! وكلّ ما يجعل حياة المصريين أكثر صعوبة؛ هو أمر يسعد الإخوان ويشعرهم بالشماتة، التي هي أهم أعراض العزلة الشعورية، انفصلوا عن الشعور الوطني في السابق، عبر محطات عانى فيها المصريون، في حربَي ٥٦ و٦٧، وغيرها من محطات الآلام، وما يزالون يعبّرون عن هذا الانفصال كلّما لاحت لهم فرصة.

العزلة الشعورية؛ هي التي جعلت الداعشي يمسك السكين ويذبح دون رحمة، أو يضع الطيار معاذ الكساسبة في قفص ويشعل النار في جسده الحيّ.

العزلة الشعورية؛ هي التي ضيعت كلّ فرصة للإصلاح السياسي والوطني في مصر، عندما عبّأ الإخوان طاقات في المجتمع، بعيداً عن معاركه واهتماماته، إخلاصاً لوهم الخلافة المزعومة التي ظلّت أحد أشكال العزلة النفسية، التي تبقى هي الأخرى أحد أشكال عزلتهم الأبدية عن الناس والأوطان.

25

طبقية تكشف فصام الجماعة

درجت دعاية الإخوان وكتاباتهم النظرية على الحديث عن الفقراء، والسعي لتذويب الفوارق بين الطبقات، واستلهام مفردات خطاب العدالة الاجتماعية الأثير لدى البسطاء والمهمشين، لكن ثبت أن الجماعة لطالما عانت من الفصام الذي يعكسه واقع الطبقية الذي تعاني منه داخلها.

تماهى الإخوان في قضية التفاوت الطبقي مع النموذج الشيوعي الذي أبرز هذا الفصام بين الخطاب والسلوك

عداء نظري للطبقية

في رسالته «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي»، تعرّض حسن البنا لقضية الطبقية، التي أبدى عداءه النظري لها، فكتب يقول، تحت عنوان «التقريب بين الطبقات»: «وقد عمل الإسلام على التقريب بين الطبقات بتحريم الكنز ومظاهر الترف على الأغنياء، والحثّ على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء، وتقرير حقّهم في مال الدولة ومال الأغنياء، ووصف الطريق العملي لذلك، وأكثر من الحث على الإنفاق في وجوه الخير والترغيب في ذلك...».

فماذا كانت حقيقة أفكار حسن البنا حول التفاوت بين الطبقات؟ وهل كان لديه انحياز أصيل للفقراء والمهمشين، أم الأمر كان محض دعاية استهدفت جذب تلك الشرائح لجماعته كي تكون وقود الحركة، تماماً كما فعل الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي؟ تجربة البلشفيين كانت أسبق من تجربة الجماعة بعشرة أعوام؛ حيث انطلقت الثورة البلشفية العام ١٩١٧، وربما جسّدت إلهاماً لحسن البنا وجماعته، في ميكانيزم استلاب الجماهير، والسيطرة عليها عبر الخطاب المزدوج؛ بدغدغة مشاعرها بالاشتراكية، وزوال الفروق الطبقية، بينما كان الواقع طبقية قادة

كان حسن البنا يحمل تقديراً كبيراً لدور المال والأغنياء في خدمة مشروعه

الحزب الذين حدثوا الجماهير عن سيطرة البروليتاريا، وزوال الطبقية، وتمتعوا هم بكل المزايا، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، عندما أعلنوا موقفاً متشنجاً مسرفاً في الدعاية تجاه الأغنياء، نموذج قد يبدو بعيداً عن واقع تنظير الإخوان، خاصة أنّ الإخوان قد درجوا على إبراز عداوتهم للشيوعية، ونقدهم لأفكارها وسلوك أحزابها وقياداتها، لكنّ اللافت أنّهم تماهوا في قضية التفاوت الطبقي مع النموذج الشيوعي، الذي أبرز هذا الفصام بين الخطاب والسلوك.

تقدير لدور المال والأغنياء

كان حسن البنا يحمل تقديراً كبيراً لدور المال والأغنياء في خدمة مشروعه؛ لذا كان

كانت قيادة الإخوان تنتمي للطبقة المخملية في المجتمع محتفظة بكل المزايا الاقتصادية والاجتماعية

حريصاً على أن يستهدف تلك الشرائح ضمن جماعته، ويضعها في مواقع السلطة، ليضمن تظهير نفوذ تلك الشخصيات لحساب الجماعة.

يقول في معرض شرح خطته للنفاذ للمجتمعات والتأثير فيها: «قضيت على هذا الأسلوب أكثر من نصف العام الأول الدراسي بالإسماعيلية، أعني ما بقي من عام ١٩٢٧، ثم أوائل عام ١٩٢٨، وقد كان هدفي في تلك الفترة دراسة الناس والأوضاع دراسة دقيقة، ومعرفة عوامل التأثير في هذا المجتمع الجديد، وقد عرفت أنّ هذه العوامل أربعة: العلماء أولاً، وشيوخ الطرق ثانياً، والأعيان ثالثاً، والأندية رابعاً».

تبدو واضحة أهمية الأغنياء لدى البنا في تنفيذ خطته، وهو ما أفصح عنه في مذكراته بوضوح، وما انعكس في اختياره لرؤوس تنظيمه.

فبتأمّل خلفية الشخصيات التي برزت إلى جانب حسن البنا، أو حتى من خلفه؛ يمكن ملاحظة أسماء حسن العشماوي، ابن الوزير السابق، ومنير الدلة المستشار بالقضاء، وحسن الهضيبي رئيس محكمة الاستئناف، وعمر التلمساني ابن العائلة الميسور، ومحمد حامد أبو النصر من أعيان منفلوط، ومع صعود التنظيم في مراحل لاحقة، ظهرت أسماء كخيرت الشاطر؛ الذي سيطر على مقدرات الجماعة بفعل امتلاكه السلطة المالية، التي جعلته المرشد الفعلي، حتى في وجود مرشد كمهدي عاكف، بشرعيته التاريخية، أو محمد بديع بحضوره التنظيمي والتربوي داخل الصف الإخواني.

قيادة مخملية

تاريخياً، كانت قيادة الإخوان تنتمي إلى تلك الطبقة المخملية في المجتمع، محتفظة بكل المزايا الاقتصادية والاجتماعية، التي مكنتهم من امتلاك السلطة والمال التي جعلت لهم الكلمة العليا في التنظيم، وقد دأبت تلك الطبقة على الاختراق من قبل الصف الإخواني؛ حيث بقيت فئة ممتازة تذكر بقيادات الحزب الشيوعي، التي تمضغ كلاماً عن المساواة وتذويب الفوارق بين الطبقات، بينما هي منتمية بضراوة إلى المعسكر الذي تهاجمه ليل نهار.

أسّس رجل الأعمال الإخواني، حسن مالك، في أعقاب وصول الإخوان للحكم، اللوبي الاقتصادي للجماعة، عبر جمعية «بداية»

تصوّر الإخوان بعد وصولهم للسلطة إمكانية الاستفادة من رجال المال المنتمين إلى النظام السابق

الإخوانية، لتدشّن شراكة بين رجال المال من المنتمين إلى الحزب الوطني الحاكم، الذي سعى الإخوان إلى عزله سياسياً دون العزل الاقتصادي؛ حيث تصوّر الإخوان أنّ بإمكانهم دمج أمواله في ماكينة المشروع الإخواني.

كانت جمعية «بداية» مشهداً دالاً في فضح حقيقة المشروع الإخواني، الذي لم تكن دعايته عن تقريب الطبقات والعدالة الاجتماعية، سوى دعاية لتجنيد ولاء الطبقات التي يستهويها هذا الكلام.

أوهام المساواة

لم تكن الطبقية السياسية أو الاقتصادية فقط هي الأبرز في سلوك الإخوان، فيروي أحد الإخوان الذين وفدوا من القرية ليسكنوا في إحدى مدن محافظة الجيزة، التي تعد المسكن المفضل لكثير من قيادات الإخوان، أنه استبشر بأنه سيقترب من تلك القيادات التي سمع عنها، بعد أن تجمعهم شعبة واحدة، وربما تجمعه أسرة واحدة بهذا القيادي أو ذاك.

وعندما أُسكِن الشاب في أسرته، فوجئ بأنّ شارعاً يفصل شعبته؛ حيث مساكن الفقراء ومحدودي الدخل عن شعبة القيادات وأبنائها، ومن يشاركهم المستوى الاقتصادي، حيث قضت مشيئة التنظيم الطبقية أن تكون الشعبة شعبتين؛ واحدة للفقراء، وأخرى للأغنياء والقيادات، وإن فصل بينهم شارع.

تكشف انتصار عبد المنعم، الروائية المستقيلة من جماعة الإخوان، في كتابها «مذكرات أخت سابقة.. حكايتي مع الإخوان»، أنّه «رغم نظام الأسر الموجود بالفعل، لم يكن من اليسير أن تختلط بأشخاص ملأت أسماؤهم دنيا الإخوان، صحيح أنك تظلّ تسمع عنهم وعنهنّ، ولا تلتقي بهنّ إلا فيما ندر»، ثم تتحدث عن تكريس الطبقية الاجتماعية، وتهميش البسطاء قائلة: «بات جلياً أنّ النظام الطبقي داخل صفوف الجماعة يقف عاجزاً جامداً، لا يعرف كيفية التعامل مع من لديهم موهبة ما، ولا يهمه حتى أن يحتويهم، مراعياً نقاط تميزهم عن غيرهم، وعاجزاً أيضاً عن التعامل مع من لديه فكر جديد متطور، ولا يقبل حتى مبدأ مناقشتهم فيما يعتقدون، ولا يسمح بتصعيد أسماء جديدة لا تتمتع بميراث شرف الاعتقال، فهناك أسماء بعينها موصى بها لاعتبارات كثيرة لا تمتّ بصلة للجدارة والاستحقاق».

بنية الجماعة تكشف دوافع سلوكها في مرحلة التمكن التي كشفت عمق الفصام بين الخطاب والسلوك

ثم تؤكد المعنى السابق في طبقية الشعب والأسرة: «وفي الوقت نفسه، كانت الأسر نفسها طبقية التوزيع، فتلك الأسماء التي يتم تلميعها لا يسمح لك بأن تكون في نطاق الاجتماع بها، فلك مستوى معين من الأسماء فقط، والفرصة الوحيدة لتلتقي بها تكون في حفل ما أو لقاء»، ثم تتحدث عن مستوى آخر من مستويات التمييز الطبقي قائلة: «ومن صور التكريس الطبقي في التنظيم الإخواني؛ فرص الزواج المميزة، فإضافة إلى الأسلوب المتَّبع في تزويج الشباب والشابات، المعتاد بينهم، كانت هناك الفرص الذهبية التي تستأثر بها بنات البارزين منهم، تبعاً لمكانة الوالد الإدارية والمالية، لو كان يعمل بالتجارة مثلاً، فتحصل المحظوظة على أفضل الخيارات، وتذلّل لها كلّ الصعاب حتى تفوز بأفضل العروض، لا يميزها سوى ميراثها من نفوذ ومال، وبعض سنوات اعتقال والدها المناضل».

هذا الجو الطبقي كان من تداعياته، كما تكشف انتصار بمرارة: «كان من مساوئ نظام الأسر الطبقي؛ أن ظهر نوع من التنافس على تولي قيادة الأسرة، بهدف الحصول على مزايا التلميع الإداري، والصعود إلى طبقة جديدة، لها من المميزات التي تجعل للمسؤولة عن الأسرة فرصاً واسعة للاختلاط بمجتمع الحرس القديم، وما يتيحه من مزايا الصعود داخل التنظيم».

طبيعة بنية الجماعة تكشف دوافع السلوك الإخواني في مرحلة التمكن، التي كشفت عمق الفصام بين الخطاب والسلوك، على نحو ما جسدت الجماعة في موقفها من الطبقية، وحديثها عن الأخوة التي تتغزل بـ«المهاجرين والأنصار»، لتجسد في الواقع ما يذكر بتجربة الحزب الشيوعي السوفييتي، الفارق فقط ربما في أنّ السوفييت احتاجوا إلى عقود ليكتشفوا الحقيقة، بينما اكتشفها المصريون بعد عام واحد من حكم الجماعة.

26

غياب نهج المراجعة

في تاريخ أيّة مؤسسة أو نظرية أو تنظيم، تبقى قضية مراجعة الأفكار والسلوك ضمانة رئيسة للحياة والحضور، تحقق حالة من حالات الحيوية والتجدّد، التي تضمن نمو الفكرة وتصحيح أخطائها، والوقوف على الثغرات وعلاجها، من أجل أن تبقى تلك المؤسسة أو النظرية صالحة للعمل والتطبيق، وتحقيق الأهداف التي نشأت من أجلها.

جماعة الإخوان استمرت منذ تأسيسها على أخطائها الإستراتيجية ومن أبرزها تمسّكها بعدم مراجعة نفسها

ظلّ حسن البنا يكرر مقولة: «حقائق اليوم أحلام الأمس» مغرقاً أتباعه في الأحلام

رغم عمرها الطويل، الذي يكاد يبلغ قرناً من الزمان، إلّا أنّ جماعة الإخوان استمرت على أخطائها الإستراتيجية، ومن أبرزها تمسّكها بعدم مراجعة نفسها، سواء على مستوى المقولات التأسيسية؛ أهدافها وغايتها ومشروعاتها السياسية، أو سلوكها التنظيمي والإداري أو الدعوي، أو حتى السياسي.

الهروب من الواقع

كانت الجماعة تدرك، منذ عهد مؤسسها حسن البنا، خطورة المراجعة التي تبدأ بطرح الأسئلة الوجودية؛ كسؤال المقارنة بين التكلفة والعائد الذي يحكم أي مشروع أو فكرة، وهل يبدو مشروع الجماعة قابلاً للتحقق؟ بمعنى: هل بالإمكان القفز على كلّ التعقيدات، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتباينات بين الأجناس والأمم والمجتمعات وصهرها في مشروع بتلك السطحية؟

وما مدى واقعية الأفق الزمني لتتحقق بموجبه مراحل مشروع الجماعة؟ بصوغ الفرد ثم الأسرة فالمجتمع على مقاس أفكار التنظيم، ثم التمظهر في حكومة تستلهم هذا البرنامج الملتبس، ثم دولة لها ملامح التنظيم تتشكل في كل قُطر، لتلتئم كلّ تلك الأقطار في خلافة تبدأ طريقها نحو ما سماه «أستاذية العالم».

حدد حسن البنا عشرة أعوام لكلّ مرحلة، وهرب من الواقع إلى الخيال، مكرراً مقولته

كان حسن البنا منتبهاً منذ البداية لخطورة طرح الأسئلة وتحكيم العقل والمنطق

الأثيرة «حقائق اليوم أحلام الأمس»، مغرقاً الأتباع في الأحلام اللذيذة، ودربهم على هذا السلوك حتى أصبح أثيراً لأفراد الجماعة، يمارسونه بإصرار، حتى بعد صدمة الخروج من الحكم، لم يجب البنا عن أسئلة الدولة، وظلّ يلحّ على سؤال الهوية، الذي كان حيلة مجربة في السابق، تسهّل الهروب من سؤال التحديث الذي لم يُجب عنه، فكان يدرك أن مقتل فكرته في طرح الأسئلة التي تتلمس الواقع، وتستأنس بالتجربة والتاريخ والاجتماع البشري، وقوانينه التي تنكّرت لها كل تلك الجماعات، وفي القلب منها الإخوان المسلمون.

الخوف من طرح الأسئلة

كان البنا منتبهاً، منذ البداية، لخطورة طرح الأسئلة وتحكيم العقل والمنطق؛ لذا كان اختياره للوعاء الصوفي في البدء؛ لأنّه يضمن طاعة المريد للشيخ والتأدب في حضرته، كالميت بين يدي مغسله، فلا يجرؤ أبداً على طرح الأسئلة، وبقي هذا الوعاء على حركته حتى بعد مقتله؛ حيث بقيت تلك التعاليم الشفهية بغلق باب المراجعة التي تطال الأفكار أو الأهداف أو السلوك، والاقتصار على التفكير في تنويع الوسائل التي تحقّق الأهداف التي وضعها البنا بصرامة لم تبلَ مع الأيام.

كان البنا حاسماً في اختياره نمط الشورى المُعْلِمة، الذي هو قتل صامت لفريضة الشورى الملزمة التي أمر الإسلام بها، فلم يسمح لفرد أو جماعة من أتباعه بأن ينتصر رأيهم في أيّ مسألة، وإن اجتمعوا عليها، والأمثلة كثيرة: يصوّت الإخوان على ترشحه في الانتخابات النيابية، فيقرر هو ألا يترشّح، فلا يرتفع لهم صوت، يتمسكون بتطبيق اللائحة التي كتبها، فيدغدغ مشاعرهم بأحاديث فارغة عن الأخوّة التي تعلو على اللوائح بمكر، ينفق أموال فرع الإسماعيلية دون حسيب أو رقيب وعندما يعترض أعضاء في مجلس الشعبة يُخرجون بعد تدبير ماكر يجعلهم هم «المارقين عن الدعوة الخارجين على طاعة فضيلة المرشد».

التبعية المطلقة للمرشد

يكشف طارق البشري في كتابه «الحركة السياسية في مصر»: أنّه «لم يلحظ في مختلف كتابات الإخوان، أنّ ثمة واجبات مقابلة يلتزم بها القائد تجاه الأعضاء، عملية كانت أو نظرية، أو أن وسائل حددت لممارسة النقد أو المراجعة للقائد»، وكتب صالح عشماوي خطاباً إلى المرشد يكشف نمط التبعية المطلقة، يقول: إنّه «من حقك علينا الطاعة على هذا بايعنا وعاهدنا، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة».

كان البنا حاسماً في اختياره نمط الشورى المُعْلِمة المناقضة لفريضة الشورى الملزمة التي أمر الإسلام بها

والأمثلة الدالة على هذا النمط كثيرة، يستدعى فيها البنا مقام النبوة بين محمد، صلى الله عليه وسلّم، وأصحابه، فيتكرر الاستشهاد بآثار منسوبة للنبي، صلى الله عليه وسلم، مثل: «إنّ الله كره لكم القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»، وغيرها من الآثار المقطوعة أو المنتحلة، تأكيداً لهذا النمط الذي كان ضمن ميكانيزمات اختارها التنظيم لقطع طريق المراجعة على الأتباع.

يحكي محمود عبدالحليم، مؤرخ الإخوان أنه بعد أن أفرج السادات عن سجناء الإخوان، في مطلع السبعينيات، تحديداً عام ١٩٧٤، عندما قضت أهم القيادات محكوميتها، وجدهم قد اجتمعوا في بيت أحدهم يتشاورون في إحياء التنظيم على الطريقة القديمة، فنصحهم بأن يتخلّوا عن تلك الفكرة، ويتحول التنظيم إلى دار نشر عالمية، تنتج الكتب وتمكّن لنشر القيم الإسلامية العامة، وليس لأفكار التنظيم، محاولاً إقناعهم بعبثية فكرة الصدام مع الأنظمة والتشوف للحكم، لكنّ مقترحه ذهب أدراج الرياح.

غلاف كتاب «الحركة السياسية في مصر» لطارق البشري

عدم الاتعاظ من الفشل

لم تتوقف الجماعة لحظة واحدة عبر تاريخها لتعيد النظر في فكرة إنشاء تنظيم حركي يطرح نفسه بديلاً عن الدولة، ووصياً على المجتمعات، لم تفكر في خطيئة إنشاء ميليشيا عسكرية، قال بعضهم إنّها خرجت عن طاعة من أنشأها، وقتلت أبناء الجماعة، بل بقي المرشد السادس للجماعة مأمون الهضيبي يردّد: «إنّ الإخوان يتعبدون لله بأفعال النظام الخاص».

لم تفكر الجماعة في جدوى الصدام مع كلّ الأنظمة، ملكية وجمهورية، أو جدوى فكرة إنشاء دولة تعيد دعوة المسلمين للإسلام.

لم تتوقف الجماعة عبر تاريخها لتعيد النظر في فكرة إنشاء تنظيم حركي يطرح نفسه بديلاً عن الدولة

لم يدفع فشل الجماعة المتكرر للاتعاظ؛ في وظائفها التي اختارتها لنفسها في الدعوة والتربية والسياسة، أو تجربة حكم بعض حواضر العالم الإسلامي، وتحقيق فشل ذريع كان من ملامحه اقتطاع أجزاء من دولة، كأن يكون الطريق للخلافة الجامعة لا يمرّ إلا عبر تقطيع أوصال العالم الإسلامي.

رغم فشل الجماعة التاريخي في حكم مصر، ورغم ما سبقه من قرارات تنظيمية كارثية، بشهادة أعضاء من الجماعة؛ كالمنافسة على كل مقاعد البرلمان، والترشح لمنصب الرئاسة، وتشكيل الحكومة، وأخونة المؤسسات، وما خلّف ذلك من مفاسد وشرور.

لم يتوقف التنظيم للمراجعة أو الاستدراك؛ بل ظلّ يتهم كلّ من يرفع راية المراجعة والاستدراك، حتى من داخله، بأنّهم مرجفون في المدينة، يناصبون الدين وأهله العداء، ويتربصون بهم الدوائر، وغيرها من ميكانيزمات الإسقاط على تاريخ الجماعة المسلمة، الذين ظلوا يعدّون أنفسهم الامتداد الطبيعي لها.

كان تجاهل المراجعة اختياراً راسخاً لدى المرشد وكل من تبعه من القيادات؛ لا مراجعات، ولا أسئلة، قد تفتح أبواب أسئلة قد تطال الأفكار والمشروع المتهافت، الذي لا يقوى على طرح الأسئلة أو مواجهتها.

كان رفض المراجعة ناجماً عن وعي بنتائجها المباشرة؛ لذا لن تنخرط قيادة الإخوان الحالية، أو من بقي حياً من قيادات سابقة، أو حتى السماح بتقويم أداء قيادات تاريخية طواها الزمان، فقط لأنّ ذلك سيقود حتماً إلى مساءلة تحدد الجنايات والأخطاء، فسجلّ الجماعة حافل بالأخطاء في حقّ الدين والأوطان، وسيبقى الإخوان يعدّون مراجعة أفكارهم مراجعة لثوابت الدين، بعد أن أدمنوا تلك الحيلة النفسية التي تجعلهم يصدقون أنّهم الأمناء على دعوة الإسلام، كما نعتهم مرشدهم الأول.

27

براغماتية العلاقة مع الغرب

تبدو محاولة استقصاء حقيقة العلاقة بين الإخوان المسلمين والغرب، وتحرير حقيقتها، أمراً صعباً، بالنظر إلى تركيبة الجماعة النفسية والحركية التي حرصت على إنتاج خطاب مزدوج، يستبطن العداوة التي تنفيها دوماً الممارسات على أرض الواقع.

الخطاب الإخواني الصريح في عداوته مع الغرب يتجاور معه خطاب آخر مناقض في ممارسات الجماعة

ازدواجية الخطاب والممارسة

يجد المراقب للعلاقات الإخوانية الغربية نفسه مرتبكاً وسط أدبيات مكتوبة تدعي العداوة، والطموح الإخواني لكيان دولي تحت راية «الخلافة»، بعد أن تتبدد وحدة معسكرات الغرب لحساب وحدة إسلامية ظلّوا يحلمون بها عبر كتاباتهم، كما ورد ضمن رسالة حسن البنا «الإخوان المسلمون تحت راية القرآن»: «ما مهمتنا إذاً نحن الإخوان المسلمين؟ أما إجمالاً؛ فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المنافع والشهوات التي جرفت الشعوب الإسلامية، فأبعدتها عن زعامة النبي، صلى الله عليه وسلم، وهداية القرآن، وحرمت العالم من أنوار هديها، وأخرت تقدمه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا ويبرأ من بلائها قومنا، ولسنا واقفين عند هذا الحد؛ بل سنلاحقها في أرضها، وسنغزوها في عقر دارها».

تبدو العداوة راسخة، كما تؤكد مثل تلك النصوص التي تستلهم خطاباً هوياتياً، لكنّ هذا الخطاب يتجاور معه خطاب آخر في ممارسات الجماعة، كما عبّر عنه مقال النائب الثاني لمرشد الجماعة خيرت الشاطر «لا داعي للخوف منّا» الذي نشرته صحيفة (جارديان) البريطانية في عددها الصادر في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٥، وفي هذا السياق نشر موقع «ويكيبيديا الإخوان المسلمين» تحت عنوان «الإخوان يرحبون بالحوار مع الحكومات الغربية دون شروط مسبقة أو وسيط» ما نصه: «أبدت جماعة الإخوان المسلمين انفتاحاً للحوار مع الحكومات الغربية، دون شروط مسبقة، بعد أن أعرب وزير الخارجية الفرنسي آلان جوبيه عن استعداد بلاده للحديث مع أي حركة إسلامية التي تنبذ العنف وتقبل بقواعد الديمقراطية، بعد أن اعترف بأن الغرب وقع ضحية لخداع الأنظمة التي قامت بتصوير تلك الحركات على أنها «الشيطان»، وهو ما يمثل موقفاً لافتاً ومؤشراً قوياً على اعتراف الأنظمة الغربية بالإسلاميين بعد أن فشلت محاولات إقصائهم، ومحاولة من جانبها لإقامة علاقة مع تلك القوى ذات الثقل الشعبي والتي دأبت الأنظمة الحاكمة على استخدامها «فزاعة» للغرب لتكريس قبضتها على الحكم».

مع الإدارات الأمريكية

استكمالاً لنهج الجماعة منذ تأسيسها تحت أعين الاحتلال البريطاني لقطع الطريق على أي فعل وطني آنذاك، وبعد أن ورثت أمريكا نفوذ بريطانيا عقب انتصارها في الحرب العالمية الثانية، لم تتوقف رحلات حج

نهج الجماعة منذ تأسيسها تحت أعين الاحتلال البريطاني جاء لقطع الطريق على أي فعل وطني آنذاك

قيادات التنظيم الدولي إلى مؤسسات الولايات المتحدة، سواء البيت الأبيض والكونغرس، أو دوائر الخارجية والاستخبارات، دليلاً على عمق العلاقة بين الطرفين.

في العاشر من كانون الثاني (يناير) الماضي؛ قدّم السناتور الجمهوري تيد كروز مشروع قانون جديد، تحت اسم «تصنيف الإخوان المسلمين منظمة إرهابية»، ودعا كروز، من ثم وزير الخارجية الأمريكي ريكس تيلرسون، إلى إجراء تحقيق، وتقديم تقرير للكونغرس حول الأسباب التي قد تحول دون إدراج الجماعة ضمن لائحة المنظمات الإرهابية الأجنبية.

وكما هو متوقع، لم يمر القانون الذي كان يستهدف تحجيم منظمة لم تعمل في الساحة الأمريكية منذ النشأة تحت اسم الإخوان المسلمين، كما كشف تقرير مجلة «فورين أفيرز»، في شباط (فبراير) الماضي، مشيراً إلى الطبيعة السرية للجماعة منذ تأسيسها، وذكر أنّ أعضاءها قدموا إلى البلاد منذ الخمسينيات والستينيات؛ حيث عمدوا في تلك الفترة إلى تأسيس واجهات متنوعة للجماعة، عبر منظمات مجتمع مدني، تتشارك أفكار الجماعة الأم في مصر نفسها، استهدفت أجيالاً من صفوف شبان مسلمين، ولدوا داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ونجحت الجماعة في تسريبهم إلى بعض المواقع المهمة؛ لذلك لم يكن غريباً ما كشف عنه ستيفان جوركا المستشار السابق لترامب، عن أنّ أجندة ترامب الحاسمة في مواجهة الجماعات المتطرفة، ومنها الإخوان، قد تمت إعاقتها بفعل حضور أنصار الجماعة داخل الوكالات الحكومية والكونغرس والإعلام الأمريكي.

سياسة أفضل الأعداء

في محاولة استقصاء العلاقة بين الجماعة والغرب، يتبين أنّها مرت بمرحلتين: الأولى: كانت مع نشأة الجماعة في نهاية العشرينيات، وكانت بريطانيا هي السلطة الفعلية في مصر، التي لم تجد في نشأة الجماعة أي تهديد لمصالحها، كما لم يرشح من خطاب الجماعة حتى نهاية الثلاثينيات أي توجه سياسي عدائي تجاه بريطانيا، وهو ما أكدته كتابات البنا في تلك المرحلة.

يكشف مارتين فرامبتون، في معرض الحديث عن تاريخ العلاقات المعقدة والمشحونة بين الغرب والجماعة، عبر القراءة في وثائق المحفوظات البريطانية والأمريكية، في كتابه «الإخوان المسلمون والغرب: تاريخ من

منذ قدوم الإخوان إلى أمريكا في الخمسينيات والستينيات عمدوا إلى تأسيس واجهات متنوعة تحت مظلة المجتمع المدني

العداء والارتباط»؛ أنّ جماعة الإخوان معادية حتماً للغرب، مستدعياً ظروف نشأتها وخطابها المكتوب، الذي يبدو مؤشراً مضللاً في الحقيقة، معتمداً على موقف الجماعة المعلن من القضية الفلسطينية، وإسقاط الخلافة العثمانية، معتقداً أنّه رغم عدم توافق الغرب مع فكر أعضائها، لكنّهم ظلوا يتعاملون معها بصورة عادية، وهو ما يفسر ربما البرجماتية التي تعاطى بها الغرب الذي بدا أكثر استعداداً للدخول في حوار، بهدف التعاون والمنفعة المتبادلة، مؤكداً اعتقاده أيضاً بأنّ تأسيس الجماعة ودعمها بريطانياً، يدخل في سياق نظرية المؤامرة على حركات المد الثوري، أو أنظمة التحرر الوطني المناهضة للإمبريالية الغربية، وهو ما يؤكّده سياق علاقة الجماعة مع النظام الناصري، الذي كان الإخوان أهم أدوات استنزافه وإضعافه لحساب الغرب بطبيعة الحال.

وهو ما عبرت عنه الفترة، من ١٩٢٨ وحتى ١٩٥٢، حيث سيطرت البراغماتية، رغم قناعة الإنجليز بأنّ الإخوان متناقضون مع مصالحهم، إلا أنّ ذلك لم يحل دون تطوير العلاقة المتبادلة، التي عدّها تندرج تحت سياسة أفضل الأعداء، التي أقرتها بريطانيا كمبدأ حاكم لإستراتيجياتها في مستعمراتها في الشرق الأوسط، خصوصاً مع ما أبداه البنا من قدرات سياسية ودهاء في توظيف التناقضات بين القصر والأحزاب، ما ساهم في الحقيقة في شلّ فعالية العمل الوطني لحساب الإنجليز.

في المرحلة الثانية؛ وفي ظلّ ما أسماه فرامبتون، العصر الأمريكي، لم تستطع واشنطن تجاهل الجماعة وأنشطتها؛ حيث ميزت داخل الجماعة بين تيارين: المتشددين الذين تبنوا منطق العداء السافر، أو المعتدلين الذين آمنوا في أعماقهم بإستراتيجية الاختباء في معسكر الأعداء، تلك التي ابتدعها البنا صيغة للعلاقة مع الإنجليز في حياته، والتي تعتمد فكرة تقبيل يد العدو بديلاً عن قطعها، وهو ما طوره جيل آخر من قيادات الإخوان، اعتمدوا فكرة الانتشار في المجتمع الأمريكي، واختراق مؤسساته، ما صنع دوراً للجماعة في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)؛ حيث عدّها الأمريكيّون، خصوصاً الإدارة الديمقراطية في ولاية أوباما، حزاماً مانعاً للتطرف، الأمر الذي تطور لدى الأمريكيين بعدها إلى اعتبارهم بديلاً لأنظمة حكم وطنية، قد يبدون ساعتها أكثر قدرة على تعويم سياسات أمريكية جديدة للمنطقة.

عقب أحداث ١١ سبتمبر اعتبرت الإدارة الديمقراطية الإخوان حزاماً مانعاً للتطرف وبديلاً لأنظمة حكم وطنية

هـذا الخيـار تبنّتـه إدارة أوبامـا؛ حيـث بلـغ مسـتوى التنسـيق بينهـا وبـين الجماعـة، حـداً دفـع خـيرت الشـاطر، المقبـول أمريـكا، إلى إعلان ترشـحه لرئاسـة مـصر، مخالفـة لقـرار مجلـس شـورى الجماعـة، والتأكيـد عـلى الدعـم الأمريـكي للجماعـة في حكـم مـصر، وهـو الأمـر الـذي لـم يتأثـر في وعـي أفـراد الجماعـة بعـد إقصائهـا شـعبياً في ثـورة ٣٠ يونيـو؛ حيث ارتفعـت صيحات التكبـير مـن الأعضـاء في اعتصام رابعـة العدوية، عندمـا أكّـد أحـد المتحدثـين عـلى منصـة رابعـة اقـتراب السـفن الحربيـة مـن السـواحل المصرية، ودخـول المارينـز لإعـادة الرئيـس الإخـواني محمـد مـرسي للحكـم، الأمـر الـذي كشـف روحـاً عامـة مـن العـداء للوطـن داخـل الصـف الإخـواني، لـم تقـف عنـد قيـادات مسيّسـة داخـل الجماعـة؛ بـل تشرّبهـا الصـف الإخـواني، الـذي ارتـاح بعـد ٣٠ يونيـو، في معـرض يأسـه مـن الشـعور الجماهيري المعاكـس لطموحاتـه، في اعتمـاد تفسـير يقـول إنّ المشـكلة في الشـعب المـصري، وإنّ عـدداً مـن أعضـاء الإخـوان منحـازون للديمقراطيـة إلى حـدّ يأسـهم مـن المواطنـة المصريـة، والتطلـع للمواطنـة التركيـة ليكونـوا جنـوداً لأردوغـان، بعد أن فشـلوا في أن يكونـوا جنـوداً لـه ولمشروعـه مـن داخـل مـصر.

28

الوطنية انتماء للتراب

يتمثل كثير من أعضاء جماعة الإخوان ورموزها بمثل تلك الأبيات، التي تحدد ولاء العضو بحسب العقيدة، في حرص على وضع العاطفة الوطنية في مواجهة رابطة العقيدة، بعدما كرّست أدبيات الحركة التناقض بين الدين والوطنية.

وصف البنا الشعور الوطني بالوهم الخاطئ في محاولة للتفرقة بين العاطفة الدينية والوطنية وتغليب الأولى على الثانية

مفردات مخاتلة تجاه الوطنية

تبدو مفردات حسن البنا مخاتلة في وصف تلك الرابطة، خصوصاً أنه كان يعبّر عن هذا الموقف في ظلّ التهاب العاطفة الوطنية المصرية، وبزوغ العديد من الحركات الوطنية التي انتظمت ولاء الشارع المصري، يقول في رسالة «دعوتنا»: «افتتن الناس بدعوة الوطنية تارة والقومية تارة أخرى، خاصة في الشرق؛ حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها، وأخذت من مالها ودمها، وحيث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربي الذي فرض عليها فرضاً، فهي تحاول الخلاص منه بكل ما في وسعها من قوة ومنعة وجهاد وجلاد، فانطلقت ألسن الزعماء وسالت أنهار الصحف، وكتب الكتّاب، وخطب الخطباء، وهتف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية».

ثم يردف: «حسن ذلك وجميل، لكن غير الحسن وغير الجميل؛ أنّك حين تحاول إفهام الشعوب الشرقية، وهي مسلمة، أنّ ذلك في الإسلام بأوفى وأزكى وأسمى وأنبل مما هو في أفواه الغربيين وكتابات الأوروبيين، أبوا ذلك عليك، ولجّوا في تقاليدهم يعمهون»، وقد سمّى هذا الشعور الوطني بالوهم الخاطئ، في محاولة للتفرقة بين العاطفة الدينية والوطنية، وتغليب الأولى على الثانية.

انحراف عمّا أراده الله

وفي هذا السياق يبدو محمود عبدالحليم، مؤلف كتاب «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ»، أوضح في كشف معتقد الإخوان حول الوطنية والجهاد لنصرة الوطن والدفاع عنه؛ حيث يتحدث عن مشاعره قبل أن تترجح لديه الرغبة في الانتماء لجماعة الإخوان، وهو يراجع الهيئات العاملة في الساحة المصرية في الثلاثينيات: «وظهرت في ذلك الوقت جمعية مصر الفتاة التي أنشأها أحمد حسين المحامي، وكانت تصلنا في المدرسة مجلتها الصرخة تفيض بالحماسة الدفاقة، وكنت أميل إليها باعتبارها فكرة ناهضة، إلا أنني لم أتخذها لي مبدأ أو فكرة؛ لأن نفسي كانت تشمئز من الانتماء للتراب، واتخاذ مصر إلهاً تقدم له القرابين؛ إذ كان مبدؤها مصر فوق الجميع، وهو ادعاء على غير أساس، وتمييز عنصري يستطيع كل جنس ادعاءه، وما أنزل الله به من سلطان»، وتأمل هذا الكلام يكشف أنّ البعض لم يغالوا عندما وصفوا شعورهم تجاه الوطن بأنّه مجرد انتماء إلى حفنة من تراب.

يعدّ الجهاد من أجل الوطن انحرافاً عمّا أراده الله لعباده بحسب معتقد الإخوان وتصورهم الراسخ

يبدو عبدالحليم أوضح في التعبير عن مكنون الصدور وحقيقة معتقد الإخوان في الوطن، لكنّ نصاً آخر في الكتاب نفسه يوضح ما هو أخطر، عندما يحكي مشهداً يعدّه المصريون من أمجد اللحظات الوطنية، ويحتل مكانه في وعي المصريين؛ مظاهرات كوبري عباس في مواجهة الإنجليز١٩٤٦، تلك المظاهرات التي اختارها العالم لتكون ذكرى يوم الطالب العالمي، كاشفاً كيف يراها الإخوان، يقول عبدالحليم: «ودنوت لحظة من بعض الزملاء، ودويّ الرصاص يصمّ آذاننا، وهنا تمثلت صورة لي، وقد أصبت، وتضرجت بدمائي، وقابلت ربي، فماذا أقول له حين يسألني في سبيل ماذا قتلت؟ سأقول له: في سبيل دستور ١٩٢٣، أهو الدستور الذي أنزله الله ليحكم هذا العالم؟ هل هو الدستور الذي قال الله تعالى في شأنه {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اَللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ اَلْكَافِرُوْن}، هنا وتحت كوبري عباس، وتحت وابل الرصاص، وشبح الموت يطاردنا في كل مكان، في تلك اللحظة قرّرت، إن كتبت لي الحياة، لأصححن اتجاهي، ولتكونن حياتي كلها لله، ولأختطفن لنفسي الخط الذي أراده الله للناس أن يسلكوه، وأن تكون جهودي جميعها في سبيل إقامة الدولة الإسلامية التي لا يرضى الله بغيرها بديلاً».

لعل تلك الفقرة بالذات، من أصدق الفقرات تعبيراً عن حقيقة شعور الإخوانيّ بالرابطة الوطنية والجهاد من أجل الوطن، الذي يعدّ الجهاد من أجله انحرافاً عمّا أراده الله لعباده، بحسب معتقدهم وتصورهم الراسخ.

لا مكان للقومية

فبينما حاول حسن البنا أن يوهم القارئ بأنّ عداءه للرابطة الوطنية هو في حقيقته عداء لمفهوم غربي، يهيمن على الساحة المصرية في ذلك الوقت، وأنه يرفض القومية لذلك السبب، يقول في رسالة «دعوتنا»: «الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية، ولا بأشباهها، ولا يقولون فرعونية وعربية وسورية»، نجد سيد قطب يقول: «إنّ المجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعدّ فيه العقيدة هي الجنسية بين الأسود والأبيض والأصفر والأحمر والعربي والرومي والفارسي والحبشي، وسائر الأرض في أمة واحدة ربها الله».

كان قطب أكثر تشدداً وتطرفاً في رفضه للدولة العربية القائمة، متبنياً نزعة راديكالية واضحة تقضي بجاهلية المجتمع المسلم، والدعوة إلى الحاكمية، والدعوة إلى القضاء

لم يفوّت الإخوان عقب خروجهم من حكم مصر أي فرصة للتدليل على احتقارهم لرابطة الوطن

على المجتمع الجاهلي بكل بناه، حتى تكون كلمة الله هي العليا، بحسب ما قال بالتالي تصبح فكرة العالمية الخلافة التي يدعو لها الاثنان، تجاوزاً لحدود الوطن، وبدلاً من أن يكون الولاء للوطن يكون للتنظيم الذي يرفع راية أوسع هي راية الخلافة التي تضم كلّ الدول دون حدود صنعها الاستعمار، كما يزعمون وتحت وهم الرابطة العالمية التي يؤطرها الانتماء لتنظيم دولي للجماعة.

وبسبب هذا الولاء الذي يعلنه أعضاء التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين، وإعطاء البيعة المطلقة للمرشد العام للجماعة، يحدث تعارض وتناقض بين مفهومي المواطنة؛ حيث يكون المواطن مخلصاً لوطنه فقط، ومفهوم الإخلاص للتنظيم والمرشد العام، وهو ما يستوجب طعناً أخلاقياً في مفهوم الإخلاص والولاء الوطني.

ترجم واضعو المناهج التعليمية في السودان كلمات سيد قطب وتصوره إلى مفهوم ينشأ عليه التلاميذ في المدارس، عندما سيطر الإسلاميون على الحكم منذ الثمانينيات، فقد جاء في صفحة (١٤٥) من كتاب الدراسات الإسلامية، المقرر على طلاب الصف الأول الثانوي تحت العنوان الرئيس «النظام الاجتماعي في الإسلام»، والعنوان الفرعي «مفهوم الوطن في الإسلام»، الآتي: «الوطن في الإسلام هو الدولة الإسلامية بأطرافها الشاسعة وشعوبها المختلفة».

بمثل تلك الأفكار تشكلت الخلفية الأيديولوجية، والمحرك المنهجي لسياسات حكومة الإنقاذ، منذ انقلب الإسلاميون في السودان على الحكومة في ١٩٨٩، وهو ما خلّف روحاً عامة تحتقر الوطنية، الأمر الذي سمح في النهاية بانفصال الجنوب السوداني، هذا الإنجاز الكارثي الذي قرب للأذهان مشروع الإسلاميين في حكم بلاد لا يؤمنون بجنسيتها، أو الشعور بالمواطنة نحوها، وما تنجزه أفكارهم ومشروعهم حين يصلون للحكم في الدولة الوطنية، كان التمكن هو ما كشف حقيقة الإخوان في السودان، بينما لم يفلح حتى التمسكن في أن يخفي خطط نظرائهم في مصر؛ لذا كان تصريح محمد مهدي عاكف لصحيفة «روز اليوسف» كاشفاً عن حقيقة الشعور بالوطن والانتماء إليه، عندما بدا مرحباً بأن يحكمه ماليزي مادام ذلك في ظل الخلافة المزعومة، وفي السياق نفسه لم يكن غريباً أن يخاطب يوسف القرضاوي أردوغان، قبل أعوام، بالسلطان «سلطان المسلمين».

لـم يـترك سـلوك الإخـوان في أعقـاب خروجهم مـن حكـم مـصر، بفعـل ثـورة شـعبية العـام ٢٠١٣، مسـاحة لخطـاب أو أدبيـات في التدليـل عـلى غيـاب رابطـة الوطـن واحتقارهـم لهـا، فالحـال أبلـغ دومـاً مـن المقـال، كمـا يقولـون، ولا شيء أصـدق تعبـيراً عـن ذلـك مـن سـعيهم بـكل سـبيل إلى الدفـع باتجـاه إشـعال فـوضى في السـاحة المصريـة بعـد ٣٠ يونيـو.

29

جماعة المسلمين حكر على الإخوان

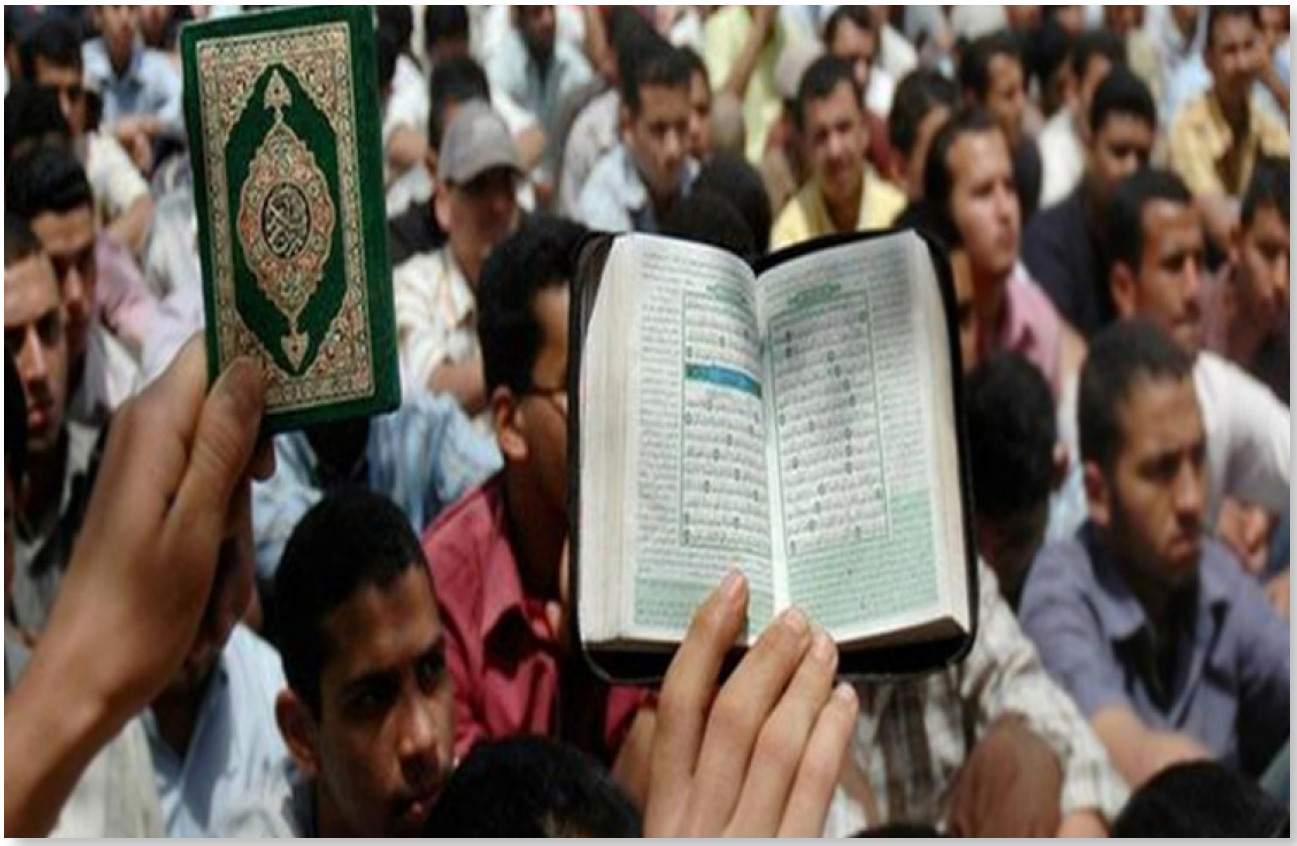

على عادة غالبية الجماعات الحركية في التعسف في فهم النصوص الشرعية، توسّع الإخوان المسلمون في صكّ بعض المفاهيم التي اعتمدت فكرة التلبيس الشرعي، والتأويل المغلوط لآيات الذكر الحكيم، والسنّة النبوية الشريفة، والآثار المروية عن الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم، في سبيل تكريس احتكار المشروعية الدينية للجماعة.

يعتمد الإخوان في التنظير لشرعية الوجود والمسعى أنّ جماعة المسلمين لم تعد قائمة منذ انتهاء الخلافة

جماعة المسلمين لم تعد قائمة!

من تلك المفاهيم الخطيرة التي اعتمدها الإخوان في التنظير لشرعية الوجود والمسعى، أنّ جماعة المسلمين لم تعد قائمة منذ انتهاء الخلافة، التي عدّوها فريضة الإسلام الكبرى الغائبة، التي يأثم من لا يسعى لاستعادتها، حيث لا فرق لدى الإخوان بين خلافة أبي بكر، رضي الله عنه، أو خلافة عبد الملك بن مروان، أو هارون الرشيد، أو حتى خلافة عثمانية يقودها عبدالمجيد أو عبد الحميد، كل تلك الأشكال من الحكم هي أشكال تمثّل جماعة المسلمين التي تنبغي استعادتها امتثالاً لتوجيهات الإسلام، وتمكيناً للشريعة الغائبة، ما دامت تضمن وجودهم في الحكم.

من تلك الكتابات التي توسّل بها الإخوان؛ كتاب منسوب لباحث يمني حاز درجة الماجستير من جامعة بالمملكة العربية السعودية، في نهاية السبعينيات، قبل أن تطبع الجماعة تلك الرسالة في كتاب تحت عنوان «الطريق لجماعة المسلمين»، الكتاب ينطلق من تلك الفرضية التي نتحدث عنها؛ وهي غياب جماعة المسلمين، أو الكيان السياسي الذي يجسّد وحدة أبناء الدين الواحد، في قفز على تطور واقع الناس والدولة وبروز الدولة الوطنية التي طوت تاريخ الدولة الدينية في الشرق أو الغرب.

يتجاهل الكتاب، أو البحث، هذا الواقع، مؤكداً أنّ جماعة المسلمين هي «الجماعة التي تتبرأ من كلّ الحكومات، ولا تعترف بالدول التي لا تحكم بالإسلام»، وهو ما ينفصل عن منطق سعيد حوى، أحد منظري الجماعة، الذي يقول في كتابه «المدخل لجماعة الإخوان المسلمين»: «وبما أنّ ولاة الأمر في الأمة اليوم، بين كافر أو منافق أو فاسق، لا تصح موالاتهم، فأقرب جهة يجب أن يعطيها المسلم ولاءه هي أكمل الجماعات الإسلامية الموجودة في عصرنا الحاضر»، وهو ما يصل بالقارئ أو المستهدف بالتجنيد إلى جماعة الإخوان المسلمين، التي تتحقق فيها، بحسبهم، شروط جماعة المسلمين؛ فالسلفيون وجماعاتهم يهتمون بأمور التوحيد والعقيدة وتشغل لديهم الجانب الأكبر، بينما يهملون فقه الدعوة وفقه الحركة، ولا يجيدون قراءة الواقع، بحسب الإخوان، بينما الجهاديون يستعجلون المواجهة مع الأنظمة، ويبدّدون طاقاتهم في معركة خاسرة، كان هذا وصف الإخوان لسلوك الجماعة الإسلامية في مصر قبل مبادرة وقف العنف.

المفارقة أنّ الإخوان بعد «ثورة ٣٠ يونيو» العام ٢٠١٣ تورّطوا فيما هو أبعد من سلوك الجماعة الإسلامية؛ عندما أطلقوا طاقة عنف

الإخوان تورّطوا فيما هو أبعد من سلوك الجماعة الإسلامية عندما أطلقوا طاقة عنف في المجتمع المصري

في المجتمع المصري، عبر كياناتهم المسلحة؛ كحسم، ولواء الثورة، وغيرها من عناوين عنف أسموه عمليات نوعية.

تفسيرات تخدم أهداف الجماعة

تتوالى المصادر التي تؤكد ما ورد في كتابات مثل: «الطريق لجماعة المسلمين» وكتاب «المدخل» لسعيد حوى، وكتاب عبد الله عزام «الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية»؛ الذي حمل اسماً حركياً للمؤلف هو «صادق أمين»، الذي يغزل على المنوال نفسه، منطلقاً من تفسير مغلوط للآية ١٠٤ من سورة آل عمران: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

تتحدث الآية عن بعض أدوار داخل الدولة الحديثة لوظيفة الدعوة والإرشاد، وتعهد حالة الامتلاء الروحي لدى المجتمع، عبر هيئة تنهض بتلك الوظيفة، فتجسد بحالها ومقالها وسلوك أبنائها القدوة للناس في أخلاقهم وسلوكهم، عبر فئة الدعاة، تلك الوظيفة التي أصبحت تنهض بها الدولة في واقعنا، عبر إنفاقها على المساجد ومنابر الدعوة وتأهيل الدعاة عبر المؤسسات الدينية الرسمية، التي تقدم الداعية المسلح بأدوات العصر المشتبك مع قضايا مجتمعه، المعني بمساعدة الناس في تهذيب سلوكهم ليكونوا أكثر تجسيداً لما تحدث عنه رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، القائل: «إنّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخلاقِ».

يختطف الإخوان وغيرهم هذا الدور، ليجعلوا الآية الكريمة محرّضة على تشكيل كيان حركي يتناقض مع مسيرة المجتمع، ويقسم فئاته بين كافر ومنافق، مقابل فئة واحدة مختارة، يعدّ أفرادها أنفسهم جماعة المسلمين الداعية إلى صحيح الدين، والمستقيمة على أحكامه.

التغذي على العزلة الشعورية

تزخر كتابات الإخوان بتلك المقولات التي تتغذى على العزلة الشعورية والوجدانية، التي أصّلتها كتابات حسن البنا وسيد قطب، من قبيل ما يقوله البنا لأتباعه: «أنتم صحابة رسول الله، ولا فخر، وحملة لوائه من بعده»، بينما يتحدث سيد قطب عن الجيل القرآني الفريد، الذي يعيد تجسيد الإسلام في الواقع، بعد أن غاب.

يحاجج كلّ من سيد قطب والبنا بأنّ الإسلام لم يعد موجوداً، وأنّ الأمل معقود

تزخر كتابات الإخوان بالمقولات التي تتغذى على العزلة الشعورية والوجدانية وأصّلتها كتابات البنّا وسيد قطب

على جماعة الإخوان في استعادته، عبر تلك الجماعة المسلمة التي تسمّي نفسها «الإخوان»، بطبيعة الحال؛ وعندما يُسأل الإخوان: هل أنتم جماعة المسلمين؟ يقولون بمراوغة وتقية اعتادوها: لا نحن جماعة من المسلمين، لكننا نسعى إلى إيجاد جماعة المسلمين الغائبة، التي لا توجد لديهم إلا عبر دولة يحكمونها.

تكفير ضمني

تحفل كتابات الإخوان بما يزكي إيمان أعضاء الجماعة، ويجعلهم فوق المجتمعات التي يعيشون فيها؛ حيث يشعر الإخوان بدونية هذا المجتمع في التصور والسلوك، مقارنة بهم هم؛ فهم الأقدر على فهم الإسلام، والأكثر استقامة على مراده وأحكامه، فالإيمان بهذا الدين لديه إيمانان، كما يزعم البنا: «والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ؛ أنّه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم، لا يريدون أن ينزلوا على حكمه، ولا أن يعملوا بمقتضاه، على حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين».

ورغم أنّ الإيمان مسألة قلبية لا يراه إلا الله، إلا أن البنا يعطي نفسه هذا الحق الإلهي، فيجعل أتباعه أصحاب الإيمان الحق الحي الصحيح، بينما الآخرون ممن لا ينتمون إلى جماعته، إيمانهم ميت أو مخدّر، لا قيمة له.

يحتقر الإخوان إيمان الناس، بينما يزكّون إيمانهم هم، باعتبارهم من يمثلون جماعة المسلمين، الأمر الذي ينطوي على تكفير ضمني لمن لا يشاركهم التصوّر أو الأفكار، يفعل الإخوان ذلك بلا تحفظ أو تفكير، فاعتقاد العضو الإخواني بأنّ الأبواب إلى الله لا تمر عبر جماعته حصراً، وأنّه تعالى أعلم بمن اتّقى، سيضع الجماعة في عينيه في حجمها الطبيعي؛ جماعة تطرح شكلاً من أشكال متعددة للتدين، جماعة من المسلمين تقترب أو تبتعد من حقائق الدين، لكنها قطعاً ليست جماعة المسلمين، فهذا مصطلح فقهي سياسي أبعد بكثير مما يعتقد الإخوان، خاضع هو أيضاً للتطوّر.

عندما يتضح الحجم الحقيقي للجماعة يصبح الانتماء إليها، أو إلى غيرها سواءً، الأمر الذي يتحسب له الإخوان ويخشونه؛ لأنّه يحول الجماعة من جماعة ربانية اختار الله لها قيادتها وأفكارها، إلى جماعة أسّسها بشر يتلبسون بالخطأ، ويستزلهم الشيطان،

تحفل أدبيات الجماعة بما يزكي إيمان أعضائها ويجعلهم فوق المجتمعات التي يعيشون فيها

كما يفعل مع كلّ الخلق، تجمعهم الأطماع البشرية كما تجمعهم الأهداف الإلهية، وهو ما أكده الحقّ، تبارك وتعالى، عندما تحدث عن صحابة حول الرسول وفي حياته، بقوله تعالى: {مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ»، هكذا كان الصحابة، وهكذا سيبقى الإنسان المسلم بين وحي السماء ونداءات الأرض؛ لذا سمّي إنساناً، سنّة كونية دبّرها الخالق، ويريد الإخوان أن يغيّروها بسنن تتوافق مع أهدافهم.

30

الإنكار تهرباً من المسؤولية

«لله ثم للتاريخ.. أسجل شهادتي في زمن علماء الكهنوت والتلون والرمادية؛ أنّ الإخوان على خير عظيم ونفع، أصلح الله بهم الكثير ولهم أخطاء لا تقطع ولاءهم».

الجماعة التي ردّد بعض أعضائها أنّها تنتصر حتى بأخطائها تحرص دوماً على تلقين أعضائها هذا السلوك

فقرة من تغريدة طويلة للداعية الكويتي الإخواني، طارق السويدان، يمارس فيها طقساً سلوكياً يمارسه أفراد جماعة الإخوان وقياداتها تاريخياً، بدأب منقطع النظير، هو طقس الإنكار والتحلل من مسؤولية الأفعال، بالتزكية الصريحة والضمنية لأفكار وسلوك كلّ أعضاء الجماعة.

جماعة تنتصر بأخطائها

الجماعة التي ردّد بعض أعضائها أنّها تنتصر حتى بأخطائها، تحرص دوماً على تلقين أعضائها هذا السلوك كابراً عن كابر؛ حيث بقي الآلية المفضلة لمواجهة الفشل الذي حاصر الجماعة ومشروعها الوهمي.

لم يرصد كثيرون حالة الإنكار التي تلبّست الجماعة، إلا بعد خروجها من حكم مصر، إثر ثورة ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣، التي أطاحت بأحلامهم؛ حيث بقي خطاب الجماعة، الذي خرج عن منابرها الإعلامية في قطر وتركيا، نقلاً عن مسرح رابعة العدوية، الذي كان بمكانه وتركيبة الحضور فيه لوناً حاداً من ألوان التناقض مع المجتمع المصري، والقطيعة مع ثوابته وخصائصه الأصيلة.

خططت قيادة الجماعة إلى سحب المؤمنين بمشروعها والمتعاطفين معها، ليكونوا في

الداعية الكويتي الإخواني، طارق السويدان

مقدمة جبهة المواجهة، وعبر عملية غسيل أدمغة مكثفة وممنهجة وخطباء مختارين بعناية رغم المظهر العشوائي الذي قصدت الجماعة أن يبدو المشهد عليه.

حالة فريدة من الانقطاع

تم تعزيز حالة القطيعة مع المجتمع المصري، بكل مؤسساته ووسائل إعلامه؛ بل والانقطاع عن العالم كله، ووسائل الإعلام الدولية، التي حرصت الجماعة على وسم من لا يتبنى منها أجندتها بأنّها هي الأخرى جزء من مؤامرة كبيرة على المشروع الإسلامي للجماعة، الذي ترتعد منه فرائص القوى الكبرى في العالم!

لم تنكشف حالة الإنكار التي تلبّست الجماعة مثلما حصل بعد خروجها من حكم مصر

وعبر الدعاية المكثفة وحملات التشويه الممنهج لكل الأصوات الإعلامية المتمايزة عن خطاب الجماعة، لم يعد المجتمعون في «رابعة» يسمعون سوى خطاب الجماعة الذي كرّس حالة فريدة من الانقطاع، وإنكار كلّ ما يحدث في الواقع.

فمحمد مرسي، الرئيس الإخواني المعزول، المتهم بالتخابر مع دولة أجنبية، سيعود للقصر بعد ٤٨ ساعة، وجنود المارينز يقتربون من السواحل المصرية لإعادة الرئيس المنتخب.

يعلو التكبير ميدان رابعة وتتواصل دعاية الجماعة في أنّ عودتها للحكم تقترب، وتسمع عبارات من قبيل «الانقلاب يترنح»، في إشارة إلى ثورة ٣٠ يونيو، بالتعريف الإخواني، الذي يأتي هو الآخر لوناً من ألوان الإنكار اللفظي لحدث بصرفه عن حقيقته عبر استخدام لفظ آخر في وعي الإخوان وحدهم.

بحور الدعاية السوداء

ظلّ الإخوان ينكرون كل ما جرى عبر خمسة أعوام كاملة، انتهت فيها ولاية مرسي التي لم تكتمل، عبر إجراءات دستورية وقانونية، وانتخاب رئيس جديد لدورتين، فيما تتواصل

ظلوا يرددون في قنواتهم بالدوحة وإسطنبول أنّ مرسي صامد في محبسه وسيعود

دعاية الإخوان عن انقلاب يتداعى وشرعية مرسي التي تتأكد.

غرق الإخوان في بحور من الدعاية السوداء، التي تتحدث عن واقع آخر مغاير تماماً لما يعيشه المصريون والعالم، وظلوا يرددون مع مذيعي «التوك شو» في قنواتهم، في الدوحة وإسطنبول، أنّ الرئيس مرسي صامد في محبسه وسيعود.

تلخّص تلك المشاهد، التي تابعها العالم عبر وسائل الإعلام، جانباً من حالة الإنكار

طالما ردّد الإخوان دون ملل أنّهم دعوة الحق في مواجهة عالم توافق كله على الباطل

التي عاشتها قيادات الجماعة، التي ظلت تصف كل ما جرى بالبطلان، وأنّهم عائدون للحكم، وظلّ كثير من أعضاء الجماعة يخادعون أنفسهم بتلك الدعاية، أو المخدر النفسي الذي حرصت قيادات الجماعة على تقديمه بانتظام لهم، بالشكل الذي قد يعتقد معه البعض أنّ حالة الإنكار تلك تعكس عرضاً نفسياً جماعياً، ربما بسبب صدمة الخروج السريع من الحكم لجماعة منّت نفسها بوجود طويل في حكم مصر، يكافئ أعوام عمرها، لكنّ التاريخ يقول إنّ عرض الإنكار لازم الجماعة منذ النشأة.

تهيئة احترازية

عندما يقول حسن البنا لأعضاء الجماعة في مطلع الأربعينيات، وقبل الصدام مع أية حكومة، أو اعتقال أحد من أعضائها أو قيادتها: «ما تزال دعوتكم مجهولة بين الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها، ستلقى منهم عداوة شديدة، وستدخلون في طور الابتلاء، وستعذّبون، وتعتقلون، وتطردون من أعمالكم، وقد يطول بكم زمن هذا الامتحان».

يريد البنا أن يصرف أذهان الأعضاء عن أنّ ما سيلاقونه بفعل الصدام مع الحكومات والأنظمة، هو جزاء مكافئ لجريمتهم، يريد تعويدهم على حالة الإنكار في مواجهة الفعل، والتملص من المسؤولية، فعندما ترتكب جريمة، الطبيعي أن تنال العقوبة المناسبة برضا وتسليم، لكنّه يريد تحصين أتباعه من التفكير فيما يفعلونه أو يتورطون فيه من جرائم، بأنّ يقول لهم إنّ إدراك الآخرين لما تفعلونه سيجلب لكم العقوبات والمشكلات، ساعتها لا تقعوا في اتّهام النفس بارتكاب الخطأ؛ بل الخطأ سيبقى عند من عاقبكم لأنّكم دعاة حق وهم دعاة باطل، وهكذا تمضي مسيرة الإخوان، فترتكب الجماعة كل الخطايا والجرائم التي تعود عليها بالنكال والعقوبات، من كل حكومة ونظام سياسي ملكي أو جمهوري، دون أن تقف لحظة وتتهم نفسها.

مناكفة التاريخ

بدأت الجرائم بتشكيل تنظيم سري على خلاف الدستور والقانون، يعمل كدولة داخل الدولة ينازعها اختصاصاتها، ويهدف للقفز على الحكم في اللحظة المناسبة.

أنشأ هذا التنظيم السرّي ميليشيا عسكرية سمّاها النظام الخاص، ظلت جرائمها قيد السرية، ولم يعرف أحد من أعضاء الجماعة، من جناح التنظيم المدني، شيئاً عن جرائمها،

لم يضمن التنظيم للإخوان البقاء إلا عبر تربية عناصره على ممارسة الإنكار

ولم يعترف الإخوان أبداً بجرائم النظام الخاص، الذي أفصح حسن البنا عن هدفه الحقيقي من تأسيسه، عندما كشف تصفح مكتبته الشخصية عن إعجابه بفرقة الفتوة التي نشأت في العصر العباسي، لتكون تشكيلاً عسكرياً سرياً جاهزاً لاستغلال أية فوضى تضرب الحكم للقفز إلى سدة الخلافة.

شكل البنا هذا الجهاز السري ليلعب هذا الدور، ولم يعرف أحد السرّ؛ حيث بقي الإخوان يتحدثون على هذا التنظيم باعتباره ذراع الجماعة العسكري الذي حارب اليهود والإنجليز في فلسطين، ولم يعترف أحد من أعضاء الجماعة بجرائمه، رغم اعتراف بعض قيادتها في الداخل المصري بجرائمهم، التي نالت من أحد أعضاء التنظيم نفسه المهندس سيد فايز، الذي قتل بطرد حلوى مفخخ هو وطفلة جارته.

لم يعترف الإخوان بأنّ إصرارهم على الجمع بين الدعوة والسياسة أو الحكم كان مشياً على خطين لا يلتقيان، وكأنّهم لم يقرأوا أبداً كتاب التاريخ.

ظلّ الإخوان يرددون دون ملل نحن دعوة الحق في مواجهة عالم توافق كله على الباطل، وسنبقى نحن ننافح عن الحق، دون أن يقفوا لحظة ليتعرفوا حقيقة أنفسهم، فضلاً عن التعرف إلى الواقع والتاريخ، لذا؛ بقيت كل نتائج أفعالهم لا تدفعهم إلى اتهام النفس أو التفكير في أفعالهم أو مآلاتها.

الشعوب تعرض عنهم وتكرههم؛ لأنها شعوب جاهلة بحقائق دينها، هذا هو لسان حال الإخوان، ألم يقل البنا لهم: «سيقف جهل الشعب بحقيقة دعوتكم عقبة في طريقكم»، الأزمة في الناس والمجتمع إذاً! وليس في الإخوان أو أفكارهم وهذا ذاته ما ردّده السويدان في تغريدته.

والأنظمة السياسية، ملكية كانت أم جمهورية، تعاديهم لأنها تخشى من نجاحهم في تحقيق الرفاهية والتقدم، وواقعهم في كلّ البلدان التي شاركوا في حكمها أو حكموها منفردين، أسطع من رابعة النهار، أما العالم الذي يتهمهم بأنهم حركة غير واقعية، ترزح في الوهم وتتجاهل الواقع، ولا تعرف إمكاناتها، ولا تدرك تعقيدات العالم، فهم يتهمونهم بأنهم كارهون للدين ولأهله، يباشرون عداوتهم التي حدّث عنها القرآن: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اَلْيَهُودُ وَلا اَلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}.

جدال لا يتوقف

جـدال لا يتوقـف، مـن كل إخـوانيّ بصـدق، فهـو يتمـترس خلـف مقـولات القيـادة، يردّدهـا دون كلـل أو ملـل، فـلا يـترك نفسـه للتفكـير الحرّ لحظـة، وإلا غـادر أسـوار الجماعـة وجنتهـا.

لـم يضمـن التنظيـم للإخـوان البقـاء إلا عـبر تربيـة عنـاصره عـلى ممارسـة الإنـكار، الـذي يضمـن عـدم اتهـام الجماعـة لأفكارهـا أو مشروعهـا أو سـلوكها، لـن يعـترف الإخـوان أبـداً بخطـأ، فهـم أهـل الحـق الذيـن لا يتلبسـون بخطـأ أو نسـيان، ومهمـا خاصمهـم الواقـع والتاريـخ والتجربـة، فسـيبقون يتهمـون الجميـع إلا أنفسـهم، معتصمـين بالإنـكار سـبيلاً للبقـاء، ولـن يفتحـوا باباً يخـرج منـه الأعضـاء بالتفكـر أو التأمـل، في الأفعـال أو المـآلات، أو مسـؤوليتهم عـن شيء مـن ذلـك.